



جامعة مؤتة  
عمادة الدراسات العليا

## الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات السيوطي

إعداد  
أسماء عودة الحسنات

بإشراف  
الأستاذ الدكتور علي المحاسنة

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا  
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة  
الماجستير في اللغة قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2013

## الإهداء

إلى لا احد

إلى الواحد الأحد

الذي قال وقوله الحق :-

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ

وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ صدق الله العظيم.

وأجرها إلى روح والدي الطاهرة عودة الحسنات "رحمه الله"

أسماء عودة الحسنات

## الشكر والتقدير

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، الحمد والشكر لله أولاً وأخيراً، الذي يسر لي أمري وهداني إلى سواء السبيل، وقيض لي زهرةً من خيرة عباده الصالحين أصحاب القلوب العامرة بحب الخير، أبدأ شكري بمن يمدوننا من فيض دعواتهم المباركة أصحاب العطاء بلا حدود أُمي أمد الله في عمرها ومتعها بسمعها وبصرها وجعل قلبها عامراً بذكره، وأبي رحمه الله وتغمدهُ بواسع رحمته، وعفر لهم ذنوبهم وخطاياهم إن شاء الله.

أما الشكر الخاص، والأعظم لأستاذي وشيخي وأخي الأكبر الأستاذ الدكتور علي المحاسنة، على ما قدمه لي من يد العون، منذ قبوله الإشراف على رسالتي، التي كانت في مجالٍ غير مجال تخصصه وهذا إن دل فإنه يدل على وجود بذرة الخير في داخله، ذات الغصون الطيبة الثمر، والأصل القائم على تقييد معرفته واحتكارها في مجال تخصصه. والشكر الآخر له على تقديره لظروفي التي مررتُ بها أثناء انجاز هذه الأطروحة. وأصدقك عزيزي القارئ أن أستاذي لم يفرض عليّ أية آراء أو اقتراحات، بل ترك عنان السير في هذه الأطروحة بيدي دون وجود قيود تُفرض، وهذه من أروع مزايا طلب العلم والتضييف فيه .

والشكر المتواصل لأعضاء المناقشة الكرام، منارات العلم المضيئة، التي تضيء أركان كل صرحٍ علمي يزهو بهم، كلٌّ من الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، والأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم، والأستاذ الدكتور حسن البكور، جزأهم الله أوفر الأجر والثواب.

والشكر الجزيل لإخواني وأخواتي على دعمهم لي، وكذلك الشكر الموصول لموظفي مكتبتي جامعتي مؤتة والحسين، الذين كانوا لي نعم العون في السراء والضراء، جزأهم الله أجزل الأجر والثواب، ولن اذكر أسماء، خوفاً من نسيان أحدهم، والتمس منهم العذر، والشكر لكل من ساهم في انجازها، ولكل من لامست أنامله أوراقها حباً للمساعدة، جزأهم الله أوفر الأجر والثواب .

أسماء عودة الحسنات

## فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
د	قائمة الملاحق
هـ	الملخص باللغة العربية
و	الملخص باللغة الإنجليزية
1	المقدمة
4	التمهيد
	<b>الفصل الأول: العلماء</b>
12	1.1 رواد الحركة العلمية
	<b>الفصل الثاني: الإجازات العلمية</b>
22	1.2 الإجازات العلمية
22	1.1.2 الإجازة بالفتيا والتدريس
23	2.1.2 الإجازات بعرض الكتب:
	<b>الفصل الثالث: المناظرات</b>
28	1.3 شروط المناظرات
29	2.3 أخلاقيات المتناظرين في كتب الأدب والتاريخ:
33	<b>الفصل الرابع: الحركة التأليفية</b>
40	<b>الفصل الخامس: موقف السيوطي من عصره</b>
44	الخاتمة
45	المراجع
49	الملاحق

### قائمة الملاحق

الرمز	عنوانه	الصفحة
أ	مقتطفات توضيحية حول بعض المقامات	49
ب	مقامة الوباء	53
ج	دور الظروف الحياتية في تطور المصطلح العربي	58

## المخلص

الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات السيوطي

أسماء عودة الحسنات

جامعة مؤتة، 2013

تناولت هذه الأطروحة أحد مؤلفات السيوطي، وهي (مقاماتهُ) التي حققها الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، حيث تُمثل صورة واضحة وحقيقة لمجتمعٍ يمتاز بكل مقوماته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية. وما يهمننا في هذا البحث هو الجاني العلمي الذي يعد القاعدة الأساسية لكل مقومات الحياة البشرية، أي لا علم دون مقوم ولا مقوم دون علم كما أشار ابن خلدون في مقدمته والهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن هوية العلم في هذا المجتمع الذي أُتهم بالانحطاط والتخلف كما وصفته بعض الكتب التاريخية والأدبية، إلا أن اللجوء إلى النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية، وهي الورقة الراححة في يد الباحث للوصول إلى حقيقة الواقع الخاضع لدراسة مُعتمداً بذلك على المنهج الوصفي القائم على أساس الرجوع إلى مقامات السيوطي، متتولاً ما بُث فيها من إشارات حول الموضوع المطروح .

وكشفت الدراسة لنا عن ذلك العصر بأنه عصر التقدم العلمي والرقمي الحضاري، إذ كثرت فيه المُصنَّفات وشاعت حركة التأليف التي اعتمدت على خصومات العلماء والتحديات بينهم، التي اختصت بمواضيع شغلت فكرهم من قضايا لغوية ونحوية وفقهية ورواة حديث

**Abstract**  
**Mamlouki Society through ' The scientific life of**  
**Alsyouti's Maqamat''**

**Asm'a Oudeh Al Hhasanat**

**Mu'tah University,2013**

This dissertation has examined one literary work of Alsyouti author namely his "Maqama" as revised and cultivated by Dr professor Sameer Al Drouby. the maqama represents a clear picture of a society remarkable for its political ,economic, religious and scientific aspects. the study is basically focused on the scientific perspective which is considered the core of all fundamental aspects of human life . that is, no science without facility and no facility without science ,as Ibn khaldoun indicated in his "Introduction" the aim of the study is to explore the aesthetic value of science in society in particular, which was claimed to be retrograde as described in some historical and literary books. However .the only successful key for a scholarly work in ones in depth study is the careful investigation of literary texts and references in both verse and prose ., and based on the descriptive approach implemented in Alsyouti Maqamat .Thus, by shedding the light on the points related to the subject discussed above .

The study has revealed that it is an era characterized by development in science and civilization . for example ,there was a lot of publications and series of articles that viewed controversy among scientists regarding structural, syntactic. jurisprudence issues as well as speech narrative

## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد -الذي آتاه الله الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يعلم الناطق بلسان الضاد، الذي أتى جوامع الكلم وعلى آله وصحبه أجمعين أن التصدي لموضوع الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات، السيوطي أمرٌ شاق ليس بالسهل، لان التعامل مع فكرة هذا البحث في النثر أمر يحتاج إلى دقة وتثبت من الحقائق العلمية المطروحة داخل هذه الأطروحة، ولذلك أتت مجموعة النصوص المقتبسة من مقامات السيوطي الدالة على الحياة العلمية عند المماليك.

ولقد حاولت الوقوف على أبرز ما في الحياة العلمية في ذلك العصر، ولذلك من خلال ملاحظات الباحثين، والشواهد النثرية المطابقة لتلك القضايا التي اتوخى تناولها لتدليل على هذه القضية إذ عدتُ إلى شرح المقامات التي أثارَ عنها تجارب خاصة في العلم وذلك لصلته القوية التي تربط السيوطي بذلك العصر خصوصاً وأنه من ابرز علمائه من خلال طرح مواقف عديدة بين العلماء العضو المحرك للعملية التعليمية.

والهدف من هذه الدراسة دفع التهمة عن العصر المملوكي العصر المتهم بالانحطاط والتخلف العلمي، إلا أن ما وجدناه من إشارات نثريه أثبتت لنا عكس ذلك. إذ تحدثت عن تلك الحياة ووصفها وتفسيرها بكل ما يعترضها من ظروف، وذلك لأهمية المقامات التي حاولت الكشف عن آلية الإبداع العلمي من خلال ما بثته السيوطي في مقاماته من إشارات عن الحياة العلمية، هذا ما دفعنا لاختيار هذه النصوص لمصادقيتها المثبتة أكثر من التاريخ أما دوافع اختياري لهذا الموضوع، وما شدني إليه، يوم ان كنا طلابا في السنة الأولى، كان أستاذنا الكبير سمير الدروبي، يلقي علينا محاضرة موسومة بندوة في النثر العربي القديم، وكانت تختص بدراسة فن المقامات، ومدى قدرتها على إيصال الصورة الواضحة للمجتمع الذي أبدعت فيه

يقول ابن حزم كبير علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري، عن الغرض من التأليف ما يأتي: (هناك أنواع من المؤلفات تبلغ السبعة ولا ثامن لها: فهي أما

شيء لم يسبق المؤلف استخراجَه مستخرجه، وأما الشيء ناقص فيكمله ويتممه، وأما شيء باطل أو خاطئ فيصححه، وأما شيء مستغلق فيشرحه، وأما شيء مُسهب فيختصره (دون أن يحذف منه شيئاً يخل بمقصده وأما شيء متفرق فنجمعه وأما شيء منثور فيرتبه)<sup>(1)</sup> وإذا أردنا أن نطبق ما قاله ابن حزم أجد أن السبب الذي دفعني إلى كتابة هذه الأطروحة هو ما أُلصق بهذا العصر بعض أقاويل باطلة خاطئة وتم اختيار هذا الموضوع موضوع بحث يقدم كمتطلب لمادة النثر وعند قراءة المقامات اكتشفت الكثير من الجواهر التي تُرصعُ نص المقامات، إن لم تكن المقامة الواحدة قطعةً حُلِي مرصعةً بالجواهر وهذا هو حال المقامات. لأن التاريخ لن يكون قادراً على تقديم إجابات كافيةٍ وتامة على كل التساؤلات التي يستطيع الأدب الإجابة عليها وإبراز ما انطوى بين السطور وأخفاه التاريخ وتقوم هذه الدراسة على تمهيد وأربعة فصول تناول التمهيد الحديث عن عصر السيوطي المليء بالمشاحنات العلمية القائمة على أساس الخصومات بين العلماء، بالإضافة لموقف السيوطي من علوم عصره

الفصل الأول: جاء فيه الحديث عن مكانه العلماء في المجتمع، وما لهم من أوصاف تميزهم عن بقيه أفراد المجتمع وخاصة مدعي العلم، منهم بالإضافة إلى ذكر بعض الألقاب التي يلقب بها رجال العلم في المجتمع حسب مجالاتهم العلمية. أما الفصل الثاني: فقد خصص للحديث عن الإجازات العلمية، وذكر أشكالها، وبعض الأشخاص الذين منحوا هذه الإجازات، وطرق منحها والحصول عليها وجاء الفصل الثالث بعنوان المناظرات، وقد تحدثتُ فيه عن مفهومها لغةً واصطلاحاً، ثم تناولت الحديث عن عناصرها وأهدافها وحكمها الشرعي وموضوعاتها.

الفصل الرابع: تحدثت عن حركة التأليف في ذلك العصر، وذلك لأن التأليف مظهر مهم من مظاهر الحياة العلمية، إلى جانب الحديث عن كل ما يتخللها من أنماط وأسباب وعملية توثيق وسرقات بالإضافة إلى العلوم التي شغلت علماء ذلك العصر.

---

1 إبراهيم، زكريا، ابن حازم الأندلسي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1967، ص 111

ومن أهم المصادر التي عدتُ إليها مقامات السيوطي محور الدراسة، صبح الأعشى للقلقشندي، والبعض من المعاجم اللغوية (لسان العرب ابن منظور)، (تاج العروس من جواهر القاموس الزبيدي)، ومن الكتب الحديثة ( العصر المملوكي في مصر لسعيد عاشور)، (قيام دولة المماليك الأولى لأحمد العبادي  
ومن الصعوبات التي واجهتني صعوبات على الصعيد الشخصي، التي قيدت حركة البحث لدي، وآمل أن أكون قد خرجت بنتائج مقنعة فاني قصدت منها إظهار الحقيقة والمعلم الآمن عند الله، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله .

## التمهيد:

المجتمع الذي نحاول في هذه الأطروحة استخراج صورته من خلال فنون الأدب، ولا سيما فن المقامات التي تعد ثروة لفظية بمنظور الناس، إلى جانب كونها فنَّ أدبياً من الفنون التي تعد وسيلة لتسريه عن النفس، لتداولها بين الناس، كقصة، أو حكاية تحقق المتعة لمتلقيها، دون النظر إلى قدرتها على تصوير واقع المجتمع الذي أبدعت فيه، إذ تأخذنا إلى ذلك الزمان، لتقف بنا على طبيعة الحياة التي عاشها صنّاع ذلك الزمان، مكملّة لنا ما عجز التاريخ عن نقله لنا من دقائق الأمور عن حياه القوم في ذلك المجتمع.

وهذا المجتمع هو المجتمع المملوكي الذي قمنا بدراسته من خلال مقامات جلال الدين السيوطي (849-911هـ) وقبل البدء بدراسة واقع الحياة العلمية في ذلك العصر، لا بد من إلقاء نظره على الحياة السياسية، التي خضع لها المجتمع وتأثر بها، لأن معرفه العامل السياسي تساعد على معرفه الظواهر الاجتماعية، وتفسيرها. بعد أن افلتت شمس الدولة الأيوبية عام 648هـ قامت دولة المماليك منذ لحظه تسلم شجره الدر الحكم وانفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجوده تدبيرها»<sup>(1)</sup>، وذلك بعد رحيل زوجها الصالح نجم الدين، ومقتل ابنه توران شاه، على يد جماعه من المماليك بعد موقعه الناصرة، وتزوجت شجره الدر من عز الدين أيبك، أحد أمراء المماليك، وذلك لما تقتضيه قوانين استلام الحكم، ويذلك تكون شجره الدر هي مؤسسة دولة المماليك البحرية. باستلامها السلطة عام 648هـ، وانتهت بموت السلطان زين الدين حاجي عام واستمر عصر دولة المماليك الأولى ما يقارب القرن ونصف القرن، وبلغ عدد سلاطين دولة المماليك البحرية خمسة وعشرون سلطاناً عام 784هـ، تفاوتت فتره حكمهم من سلطان إلى آخر، منهم من

---

1 بردي ، ابن تغري ( ت 874): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة، 1963، ص 3916.

حكم بضعه أيام، وآخرون بضعه أشهر ومنهم من تسلم الحكم لعدة سنوات، ومنهم من تسلم الحكم صبياً أو طفلاً لم يبلغ الحلم، وتحت إمرتهم أتابك ونواب سلاطين. (1) ومن ابرز السلاطين الذين كان لهم أثراً كبيراً في عهد دولة المماليك البحرية السلطان قطز، الذي تسلم الحكم عاماً واحداً، من سنة 657هـ-658هـ، وقُتل في هذا العام بعد موقعه عين جالوت، ضد المغول، وذلك في (يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان). (2) كذلك الظاهر بيبرس الذي تسلم السلطة في عام 658هـ-676هـ، والمنصور قلاوون الذي حكم بين عامي 678هـ-689هـ، والأشرف خليل الذي تولى الحكم من 689هـ-، وقُتل في 693هـ، وهؤلاء من حكموا فترة أطول تخللها "هزيمة التتار على يد بيبرس وما وراء الفرات والاستيلاء على عكا سنة 690هـ على يد الأشرف خليل (3) والدولة المملوكية الثانية، دولة المماليك البرجية، سموا بذلك لأنهم كانوا مقيمين في أبراج (الجراكسة)، وهم حراس السلطان قلاوون، وبدأت الدولة عام 748هـ بسلطة الظاهر سيف الدين بن برقوق، وانتهت عم 923هـ، بانتهاء حكم السلطان طومان باي، باستيلاء العثمانيين على سوريا في عام 922هـ، ومصر عام 923هـ، وعدد سلاطينهم ثلاثة وعشرون سلطان (4)

واللافت للنظر، أن الدولة الأولى، المسماة بالمماليك البحرية، كانت فترة غنية بالإحداث المتمثلة في الصراع مع الفرنجة والمغول، وجهود مبذولة في إنشاء المدارس والمكتبات مع وجود المفارقات الاجتماعية والدينية والسياسية، كالتمسك

---

1 باشا، عمر: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، دار الفكر المعاصر - بيروت ط1،

1989، ص 25

2 البرمكي، ابن خلكان (681): وفيات الأعيان وأبناء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس،

1971، ص 2972.

3 جامعه القدس المفتوحة، منشورات: تاريخ الأدب العربي، 1995م، ص 415

4 باشا، تاريخ الأدب، ص 25، 26

بالدين والزهد والإسراف واللهو والغرق في ملذات الحياة، ووجود الطبقة بين الناس من بذخ وفقر شديد واعتداء على الأموال والأنفس والحرمانات. (1)

والعلم عماد الحضارات وأقوى دعائمها، لما له من علاقة وثيقة بأحوال الدولة وسياستها، فإذا نظرنا في كتب العرب القدماء نجدها سجلات أثبتت فيها مآثر تلك الأمم (لان المصدر الوحيد لتاريخ الإسلامي والمسلمين والآداب الإسلامية)<sup>(2)</sup> لذلك فان الدولة لها دورٌ هام في رفع سوية التعليم في زمانها، (وكان السلطان يتدخل أحياناً للحض على العلم وخاصة الديني كالقرآن والحديث)<sup>(3)</sup>

(وقد شاعت تهمة باطله بين الباحثين وسمت هذا العصر بأنه عصر جمود، وركود في الحياة العقلية والأدبية، ولكن النظرة المصنفة إلى نتاج هذا العصر، والفحص لأراء علمائه لجعلنا ننفي هذه المقولة الباطلة عن هذا العصر الذي عاش فيه ابن خلدون وابن حجر العسقلاني والعيني والمقرئزي، وغيرهم من العلماء الإعلام)<sup>(4)</sup>

وبناءً على ما سبق، سوف نتناول موقف السيوطي من علوم عصره، وما كان له من أثر واضح في إثراء الحصيلة العلمية في ذلك الوقت.

والفترة الهامة بالنسبة لهذه الأطروحة، هي الفترة التي عاش فيها جلال الدين السيوطي، الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر الهجري. وفي هذه الفترة تسلم سلطنة الدولة المملوكية ثلاثة عشر سلطاناً، منهم الملك المظفر جقمق، والمؤيد شيخ، وأحمد المؤيد بن الاشرف إينال العلائي، وقايتباي العلائي، الملقب بالظاهر ترمبغا، وغيرهم من السلاطين الذين يتنازعون على سلطه الحكم متفاوتين في مده الحكم، من عدت سنوات إلى شهر أو اقل.

---

1عباس، أحسان: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، منشورات لجنة التاريخ بلاد الشام،

الجامعة الاردنيه- جامعة اليرموك - عمان، 1998، ص142-160

2 زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة - بيروت، م2، ص 172.

3 سلام، زغلول: الأدب في العصر المملوكي، منشآت المعارف \_ بيروت، ج 4 / 178

4 السيوطي: جلال الدين(ت911): شرح المقامات جلال الدين السيوطي، تحقيق سمير

الدروبي، مؤسسه الرسالة\_بيروت 1989، ج1، ص27.

وهذه الفترة التي قضى فيه السيوطي اثنين وخمسين سنة من حياته، وهي الفترة الممتدة من (849\_901هـ)، معاصراً لسلطين قلّ الصراع في عهدهم. وكانت شخصيه السيوطي العالم (المحافظ على كرامته والمترفع عن السعي وراء الحكام، غير المتهافت على ولائم السلاطين، المتعالي عليهم النافر منهم، قد جعلته مثلاً رفيعاً لما ينبغي أن يكون عليه العالم المسلم سلوكاً وترفعاً في كل زمان ومكان، ذلك لان الصراع بين العلماء والسلاطين دائم موصول ما لم يكن السلطان عادلاً مستتيراً، وما لم يكن العلماء على قدر من سمو بأنفسهم والحفاظ على مكانتهم. (1)

ومما لا شك فيه أن موقفه من حكام عصره، كان الشرارة المشتعلة في كثره تأليفه للكتب والرسائل ذات الصلة بالخلفاء والسلاطين والأمراء، ولتنويه لمواقفه مع الحكام والسلاطين، لا بد من الإشارة إلى موقفه من علامته بسلاطين المماليك الذين عاصروهم وبخاصة الأشرف سيف الدين قايتباي (حكم 872\_901هـ) قرابة ثلاثين عاماً، وهي فترة نضوج السيوطي وتبلور نزعاته الفكرية ومواقفه السياسية. (2) ومن المواقف التي توضح علاقة السيوطي بالسلاطين هي علاقة السيوطي بقايتباي، الذي طلب من السيوطي الطلوع إليه أول كل شهر مع القضاة، لكن عدم تردد السيوطي على السلاطين أوضح عن مدى استقامة السيوطي وسيرة على نهج السلف الذي لم يتردد على الأمراء الأمرات يسيره، إلا إن السيوطي لم يتردد إلى السلطان إلا حين وقع عن فرسه عام 861هـ، وفي نفس العام أرسل إليه السلطان وعينه شيخاً في الخانقاة البيبرسية (3)

ولقد تعرض السيوطي للموت المحقق عندما أهدر السلطان طومان باي دمه، لان أعداء السيوطي أبلغوه أنه دائم الحط عليه واستغل السيوطي موهبته الأدبية في تسجيل ما حدث في صره، إذ يعد السيوطي ظاهره علميه متميزة في عصره،

---

1 الشكعه، مصطفى: جلال الدين السيوطي، الدار المصرية اللبنانية \_ القاهرة ، 1994م، ص

ب

2 انظر الدروبي، سمير: ظاهره التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي، وزارة الثقافة \_ عمان،

2005 ، ص 89

3 انظر الدروبي، ظاهرة التعدد والكثرة، ص 89، 90.

ومن أعلم أعلام القرن التاسع والعاشر الهجريين، إذ تعرض للعدائية من خصومه، أمثال السخاوي، ولهذه العدائية أثر بارزٌ على السيوطي والسخاوي في مجال التأليف والرد على بعضهم البعض، كقضية الحديث النبوي سبعة يظلمهم الله في ضله.

واتهام السخاوي للسيوطي بسرقة الزيادة على هذا الحديث، وترجم السيوطي لنفسه، عما رزق من العلم، واعتبار هذا الأمر مفاخره من قبل السيوطي، والسيوطي لم يخطئ في ترجمته لنفسه كغيره من العلماء؛ أمثال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) وأبن خلدون في (تاريخه)، وياقوت الرومي في (معجم الأدباء)، والمتتبع لسيرة السيوطي يرى مدى اهتمامه بالكتب والعلم الذي درسه على يد مشايخه فضلاً عما كان يقرأه بنفسه لنفسه، ومن جانب آخر ملازمة السيوطي لمكتبة محمود الاستادار التي عُرفت بالمكتبة المحمودية وكان بها أربعة الألف مجلد وعمل على فهرستها، أما من ناحية الرحلة، وهي أمرٌ ضروري لإكمال تحصيل العلم فإن السيوطي لم يكتفِ بالرحلات الداخلية في هذا المجال، ونتيجةً لتعرض السيوطي للخصومات والهجمات، قرر السيوطي الاعتذار عن الفتيا في أكثر من مقامة (المقامة المزهرية المسماة بالجنح إلى الصلح، والاستتصار بالواحد القهار، والمقامة اللؤلؤية)

يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنها تصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقي في الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة، وبعد ذلك انسحب من الحياة العامة وترك التدريس والإفتاء الداخلية في هذا المجال، ونتيجةً لتعرض السيوطي للخصومات والهجمات قرر السيوطي الاعتزال عن الفتيا في أكثر من مقامة (المقامة المزهرية المسماة بالجنح إلى الصلح، والاستتصار بالواحد القهار والمقامة اللؤلؤية) يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنه تصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقي في الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة، وبعد ذلك انسحب من الحياة العامة وترك التدريس والإفتاء.

ولفت السيوطي الأنظار إلى ما يعانیه المفتي حين يتصدى للإفتاء وهذا ما أوضحه في مقامة الاستتصار بالواحد القهار.

وأما المقامة اللؤلؤية يشير فيها السيوطي إلى انسحابه من التدريس والفتيا شرحاً وافيةً ويقول (.... ليس هذا زمان الصبر، الصابر فيه كقابض على الجمر، رأينا فيه ما أنذر به الرسول وصحت به الأحاديث والنقول) (1) ويمضي السيوطي في تقرير حال زمانه وتسجيل سوءات عصره، مبرراً القرار الذي اتخذ بالامتناع عن التدريس والفتيا في مقامته اللؤلؤية، ويتضح لنا من خلال هذه المقامة كثرة الإستفسار عن سبب الامتناع لدى السيوطي عن الإفتاء والتدريس، حيث عاتب السيوطي من يعاديه فيما أصدره من علوم، وخاصة الإفتاء، وبينت أيضاً سبب المعادة على الرغم من التزامه الطرائق الصائبة وفي هذا المجال، وأشار السيوطي أيضاً إلى وجود أعذار قدمها عند اعتذاره عن الفتيا والتدريس وذلك (الشح المطاع، ودنيا مؤثرة وهوى له ذو أتباع، وإعجاب كذي رأي برأيه وذلك عين الابتداع، وقد مرجت الأمانات وكثر القائلون بالزور والشهود.... وخون الأمين.... وتكلم الرجل التافه في أمر العام، وتعلم المتعلم لغير العمل) (2)، ويشير السيوطي في حال ظهور هذه الأسباب من شح الحياة ومطامعها ومؤثراتها ومغيراتها، إلى ترك الفتيا والتدريس لكي لا يختلط الحابل بالنابل .

وقسم السيوطي الذين تلقوا العلم على يده ثلاث طبقات، الأولى من اعترفت بجهود السيوطي (كانت خيراً طرفاً، ديناً وفضلاً وصدقاً وعزماً، فحياها الله وبياها) (3).

الطبقة الثانية: وهي التي لا تعترف بفضله عليها (تعرف وتتكبر، تدم وتشكر، وهذه يُحمل أمرها ويروج سعرها ويخفف أمرها) (4).

الطبقة الثالثة: هي الأشد عدائية وطغياناً، (الله أكبر ما أكثر شرّها، وأكبر شرّها وواشد امرها وأنكر أمرها وأعظم إمرها أقوى فجورها،... وبهتانها وزورها

---

1 السيوطي ، شرح المقامات: ج2، ص 998.

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 999

3 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001—1002

... ليست للعلم ولا للحلم بأهل<sup>(1)</sup>، ويتوقع ظهور طبقة رابعة أكثر فجورا وبأساً وعدائية وقد يكون هذا اكبر دواعي ترك الإفتاء والتدريس، (أن يأتي بعد هؤلاء حثالة الرجال، وفراخُ يأجوج ومأجوج والدجال)<sup>(2)</sup> ويشير أيضاً إلى قدرته على تمييز الأصدقاء، فمنهم من يكون ذا بهرجةٍ دون قيمة لا خير فيه، ومنهم من يشك فيه لا يعرف أهو معك أم عليك ومنهم الصاحب الذي لا يمكن أن تتخلى عنه ويصف السيوطي الفتيا التي (طبقت الأرض شرقاً وغرباً، وعجماً وغرباً)<sup>(3)</sup>، واصفاً هذه الفتيا بأنها، تفتح كل مُقفل، وتوضح كل مُشكّل، وتزيل كل مجهلة. أسلوبه في الفتيا:

الغوص في العلوم والبحث عن القضايا الهامة، والاطلاع على نقول الأئمة الكثير وإظهار ما لم يعرفه الناس وإزالة الإبهام واستخراجها (أغوصُ البحارَ على الجواهرِ، وأفحصُ عن نقولِ الأئمةِ الجماهيرِ، ولتتبعُ ما خفي على الناسِ، وأزيلُ كلَّ إبهامٍ وإلباسٍ واحشُدُ النُّقولِ، وأحشُرُ كل قولٍ، واصدعُ باحق وأصولُ، وأفوقُ الأسنة والنصول..)<sup>(4)</sup> واستمر بالحديث عن نفسه، وقدرته على مواجهة المشكلات، وفساد مدعي العلم، وفساد علومهم، وصفاتهم ومن هذه الصفات، رفضه كل ما هو جديد من العلوم بحجة عدم سماعه سابقاً، وفساد علوم الشريعة، واهتمامهم بالمظاهر، وفساد أنفسهم، وعدم القدرة على تحقيق مطالبهم، وعدم الخوض في مسائل العلوم، وأشار إلى وجود علماء المظاهر، الذين يتقربون للأمرء وانصرف جل اهتمامهم إلى المظاهر، (..... احدهم أن طَوَّلَ كُمةً وكَبَّرَ العِمةَ وسَرَّحَ لحيتهُ وحسَّنَ هيئتَهُ، ثم حَفَظَ دستَ فجورٍ ليكابِرَ وتردد إلى الأمرء والأكبارِ)<sup>(5)</sup> وتصديهم لتدريس والفتيا وهم براءة من ذلك جزاء وتوبيخ للجهلة، الهجر والابتعاد عنهم ومحوا أسمائهم من

1 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1002

2 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1002

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1003

4 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1003-1004

5 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1012

سجلات العلماء، وإبعادهم عن الحصول على ما يريدون إذا سألوا وأرادوا الاجابه وهذا النوع من العقاب الذي استخدم معهم كما استخدم معهم العلماء.

وفي حال وقوع مشاكل، تُحضر هذه المشاكل، وتوجه إلى من هو محسن لها، ولديه ميول إلى حلها، وعمل على أرجاع الإثم على من سمح لهؤلاء الجهلة بأن يخوضوا في مسائل العلم ويجيبون عليها، (فأثم تخلفي عن الجواب وتركي لإبانة الصواب على من فتح هذا الباب، وكان ذلك أحد الأسباب) (1)

وفي الختام أُنشأ إلى وعي المجتمع، وتحضره وقيامه من تحت نير الجهل السائد في ذلك الوقت، وأخذ كل ذي حق حقه، (قد تدبرت المصالح، واقتديت في الترك والعزولة بالسلف الصالح، وانتظرت رحمة الله وهي قريب، وعدلت عن طريقة من هو في شك من ذلك مُريب، وأضربت عن أسلوب لا أرضاه وأن قل في ذلك الضريب، وكررت على سمعي ذكر حبيب من حديث: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ) (2) وتحدث عن صحوت المجتمع وقيامه من تحت نير الجهل الشائع في ذلك الوقت وأخذ كل ذي حق حقه ودعا إلى صبر العالم (وأَتُوا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بِالْإِمْرَارِ) (3)

---

1 السيوطي، المقامات: ج2، 1014.

2 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 41039

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1041

## الفصل الأول العلماء

### 1.1 رواد الحركة العلمية

تعد بغداد مركز الحضارة الإسلامية منذ بدايات القرن الثاني الهجري، فالخلفاء العباسيين اعتنوا بالجانب الفكري كعنايتهم بالجانب السياسي، ونتيجة لهذه العناية، وُجِدَ في نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري تراثاً فكرياً لأفكارٍ لا تكاد أي حضارة أن تضاهيه، إلا أنه تعرض لهجمة بربرية، كادت تقضي عليه، لولا ما قام به العلماء من عنايةٍ في الأمصار الأخرى مثل مصر وبلاد الشام والحجاز؛ إذ يعود لهذه الأمصار الفضل في إحياء هذا التراث والإبداع فيه؛ إذ انتشرت المراكز العلمية في كافة أرجاء الشام ومصر، وساعدت على نبوغ كثير من العلماء الذين وجدوا التشجيع من السلاطين والأمراء، وعامة الناس، مما ساعد على النهوض بهذا التراث وتوثيقه، والعمل بكل الطرق من أجل صياغته وتوثيقه.

وهذا يعد انعكاساً لمجتمعٍ اتصف فيه العلماء بالعلم والإبداع، والأخلاق الرفيعة، فكانوا من أبرز ما قدمت الحضارة العربية الإسلامية للعلم في مختلف العصور؛ إذ شكل العلماء جزءاً هاماً في المجتمع الإسلامي المثقف في الأدب والشريعة والعقائد، ومنهم قضاة ومدرسين وحفظةٍ للقرآن ورواة للحديث.... الخ، وتمثلت واجباتهم بإصلاح ما فسد في المجتمع، من خلال التوجيهات، والفتاوي التي يصدرونها، إلا أن علاقة العلماء بالطبقة الحاكمة وثيقة إلى حد ما، فاشتهر المظفر قطز بحبه للعلماء<sup>(1)</sup>.

ويُعدُّ الظاهر بيبرس أكثرُ السلاطين اهتماماً بالعلماء، وإعطائهم المكانة التي يستحقونها، فأكثرَ من بناء المؤسسات العلمية، وأخذ على العلماء العهد، وتبليغ

---

1 أنظر العيني، بدر الدين : السيف المهند في سيرة الملك الويد، تحقيق فهم شلتوت، دار

الكتاب العربي - القاهرة، 1967م، ص 48

أحكام الدين ومناصحة المسلمين، وتعظيم حرماته، وإعظام شعائر الدين وتكريم العلماء وأتباعهم (1)

وتعد منازعة سلطان تونس ومصر على ابن خلدون، من دلائل مكانة العلماء في العصر المملوكي وهذا ما ذكره ابن خلدون (فأبرّ مقامي وأنس غربتي، ووفر الجرابة من صدقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي، وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان عن السفر، أغتباطاً بعودي عليه، فطلبتُ من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه، لتخليه سبيلهم ..... فشفع لأهله وولده" (2)، "إلا أن بعض سلاطين المماليك احتفوا بالسلطة المطلقة، ولا معقب لآرائهم وأحكامهم، وإن شاؤوا أحياناً في بعض الأمور جماعة الفقهاء والعلماء، إلا أنهم احتفظوا لأنفسهم بسلطة التصرف، حتى خالفوا رأي مجلس العلماء وأهل الرأي" (3).

العالم في المقامات: حدثنا السيوطي عن مكانة العالم من خلال علومه وإنتاجاته العلمية، ودوره البارز في المجتمع المملوكي، وماله من إصلاحات في مجتمعه، من خلال أعوانه العلماء والتلاميذ، "قل وُضِعَ كلُّ عامي في الأرض في كفةٍ، ووُزِنوا بفضيهِ واحد لكانوا هم في جانب الخفة" (4) ولكن هل المقصود هنا كل من حمل لقب عالم بعالم، إذ لوحظ في المجتمع المملوكي إنتشار الكثير من العلماء، الذين امتهنوا العلم ولكن ليس كل عالم بعالم ومن هذا المنطلق، علينا التمييز بين العلماء ومدعي العلم.

---

1 السيوطي، جلال الدين (ت 911): حسف المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ط 1، 1967، ج 2 ص 104\_103.

2 ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر- بيروت، ط 2، 1998م، ج 7، ص 649 – 652.

3 سلام: الأدب في العصر المملوكي، ط.ت. ج 1، ص 63

4 السيوطي، جلال الدين السيوطي (ت 911) : شرح مقامات جلال الدين السيوطي، تحقيق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط 1، 1989م، ج 1، ص 228. وانظر ابن جماعة، محمد بن إبراهيم: تذكرة السامع والمتكلم، جمعية دار المعارف العثمانية، 1353، د.ط، ص 18-28.

وهذا يشير إلى وجود صنفين من العلماء؛ الأول اتخذ العلم في سبي الله، والثاني اتخذه ليحصل على المال، وإشارة ذلك في المقامات، مقامه طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة، التي رد فيها السيوطي على ابن الكركي، (وقولك: إنك كنت منذ نشأت محصلاً للذهب، صحيح لا يغفل لقد كنت تحصله في كل باب من الأعلى ومن الأسفل، وأما أنا ما طرقتُ باب أحد، ولم يكن لي من دون الله ملتحداً<sup>(1)</sup>)

ذكرت لنا كتب التاريخ والأدب صفات العلماء. التي يمتازون بها عن غيرهم، لكي تمكنهم من التصدي لتعليم، وتكمن هذه الميزات في كونها أخلاقية وعلمية، والأخلاقية منها تمثلت بالخوف من الله عز وجل، والقناعة بما قسم له، والبعد عن المناصب الدنوية، وصيانة العلم، الحفاظ على القيام بشعائر الإسلام، وظواهر الأحكام؛ كإقامة الصلاة وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلي بكمال الأخلاق من بشاشة وجه، وحلم وكظم غيظ، وكف أذى، وتواضع، والسعي في قضاء الحاجات، والطهر من الأخلاق الرديئة؛ كالغل والحسد والغضب والبخل والرياء والإعجاب والسمعة والمباهاة، وأن لا يجعل العلم جسراً يعبر من خلاله إلى أغراض دنيوية من جاه ومال وسمعة وشهرة، وأن لا يستتفك عن طلب العلم ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً، وإخلاص النية لله عز وجل في طلب العلم، وهذه الصفات هي المؤهلات الأخلاقية لدى العلم<sup>(2)</sup> أما العلمية تأتي في الدرجة الثانية من الأخلاقية، لأن الأخلاق وحسن الأخلاق أساس كل شيء.

فعلى العالم أن يمتلك قدراً كبيراً من العلم، ويكون ملماً بعدة علوم كعلوم اللغة والأدب، والعلوم الشرعية وسير السالفين، والى جانب هذه المعرفة المهارة في التصنيف والتأليف، والجمع لما له من فوائد "فالتصنيف يفضي إلى كثرة التفتيش والتحقيق والمطالعة والمراجعة، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقهِ، واضحة

1 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص768.

2 أنظر النووي، زكريا بن يحيى: أدب العالم والمتعلم، مكتبة الصحابة- طنطا، ط1، 1987،

ومشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد" (1).

وعليه أن "يحسن إلقاء الدرس وتفهيمة للمحاضرين" (2)، وذلك أن "الحدق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله استنباط فروع من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفن حاصلًا... ولكل إمام من المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به" (3) إذ استخدموا طرائق تدريس وأساليب متطورة فذكر كل من ابن ماجه والنووي بأن المدرس يحسن اختيار المكان الذي يجلس فيه لإلقاء الدرس فيجلس في مكان بارز للجميع، ومعتدل الصوت، لائق المظهر، وأن لا يكون محتاجاً الى شيء في نفسه عند إلقائه الدرس، أي أن ينتهي من الدرس في حال جوعه أو عطشه أو هممه أو غضبه أو نعاسه أو قلقه أو برده أو حرة (4).

وصفات العالم في المقامات كما أشار لها السيوطي كثيرة، تمثلت هذه الصفات بـ وقد ولي مثل وظيفتك من هو أغزر منك علماً، وأثقب فهماً وأعظم تقوى، وأحسن نجوى ورجوى، وأزكى نسباً وأعلى حساباً، فما منهم أحدٌ سار مع الناس هذا السير، ولا سامهم بذل أو خسف أو ضيم أو خير، وما منهم أحدٌ إلا وألسنه الناس له بالدعاء منطلقة، وقلوبهم على محبته مؤتلفة متفقة، وذلك مصداق الحديث والأثر المشهورين: من لانت كلمته وجبت محبته والكلمة الطيبة صدقه» (5).

لكن هذه العناية في إختيار المعلمين على أسس قوية، لم تمنع بعض الأشخاص مدعي العلم من الوصول الى حرم العلم، واختراق أسواره، لتحقيق ذاتية أقرب إلى

---

1 النووي: آداب العالم والمتعلم، ص 32، 33.

2 السبكي، عبد الوهاب بن علي: معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط1، 1986، ص 83

3 ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص 250 1998

4 ابن جماعه: تذكرة السامع والمتكلم ص 30-33، 39. النووي: آداب العالم والمتكلم، ص 40، 41 .

5 السيوطي، شرح المقامات، ص405.

المادية، هذا ما ذكرته كتب التاريخ، والأدب، وما أكدته مقامات جلال الدين السيوطي، إذ أشار إلى العديد من صفات العلماء كعدم الخوض بشيء لا يعلمه "قتل أرضاً عالمها" (1)، ودعوة إلى الصدق والقرب من الواقع والثبات عليه وعدم الافتراء على الآخرين وهذا ما خصه السيوطي بالعالم أي لا ينطق بالرجل إلا بما فيه " ما دهاك يا غلامُ . . . . . زعمت أنني في مقامتي جننتُ عليك بالافتراء وآتيتُ بما يكذبني في الوري، ومعاذ الله أن يكون لي ذلك خُلُقاً، أو أن أضع على أحد من الخلق شيئاً مُختلفاً وأقول كما قال الزهري للوليد: لو نادي منادٍ من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبتُ ولا تلفظت بكلمةٍ خلاف الواقع ولا كتبتُ" (2)

وأكد أيضاً على سعة الحفظ والاطلاع وخاصةً في العلوم الفقهية وغيرها من العلوم "ولو أن لهذا الرجل حفظاً وسعة اطلاع عن طريق السنة لوقف على الولاية . . ." (3)، وركز أيضاً على حفظ اللسان والحلم " أما عَلِمَ أن الجهل في الكتاب والسنة هو ضدُّ حِفْظِ اللِّسانِ والحِلْمِ. أنت يا شيخُ رجلٌ عَالِمٌ ولكن أدبك العِلْمُ" (4) وهذه دعوته أيضاً إلى الصبر وتحلي به ومخافة الله "نحن مأمورون بالصبر والإحتساب، وتأخير المطالبة إلى يوم الحساب." (5).

ولمدعي العلم أوصاف تميزوا بها، جاءت على النقيض من صفات العلماء، وهو ما أشار إليه السبكي بقوله " ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها . . . . . ثم، فهذا إن كان لا يقدر إلا على هذا القدر؛ فهو غير صالح للتدريس، ولا يحل له تناول معلومة" (6) ولقد نقلت المصادر أمثلة على مثل هذه الوقائع، كواقعة عمر بن أبي الحَرَامِ بن عبد الرحمن بن يونس زين الدين

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 665. هذا مثل يراد به أن الرجل العالم بالارض يذلها

ويغلبها بحلمه ويضرب بمدح العلم

2 السيوطي، شرح المقامات، ص 667

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 942.

4 السيوطي، شرح المقامات، ص 1048.

5 السيوطي، شرح المقامات، ص 230، 231.

6 السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص 83، 84

الدمشقي (ت 728)، حيث ألقى درس الحديث بالقبة المنصورية، وصار صغار الطلبة ينقلون وقائعه للعلماء، وعندما عين ناظر الوقف الشيخ أحمد بن محمد العسجدي (ت 758هـ) مدرساً للحديث في المنصورية، اعترض الطلاب على ذلك، وقالوا "وليت علينا من لا يصلح، ونحن لا نريد إلا من ننتفع بعلمه"<sup>(1)</sup> وعلى المدعي العلم أن يقحم نفسه بما ليس في استطاعته الرد عليه، حتى يحفظ كرامته وماء وجهه "لو اجتمع كل عدو لك لم يقدرُوا ان يَجْرُوا إليك مثل الذي جررته إلى نفسك من الضرر، وأوقدته عليك من الشرر، يوم لا مفر ولا ورر فقد نص العلماء وأهل الإمامة على أن: من أقر كذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان النبي خصمه يوم القيامة، يكفيك العقوبة هذا القدر وأن تحشر في زمرة الكذابين"<sup>(2)</sup>.

وفي المقامات فقد بث السيوطي في مواضع كثيرة منها صفات مدعي العلم التي جاءت منافية لصفات العلماء ومن هذه الإشارات التي أشارت إلى انتشار مدعي العلم العائد إلى عدة أسباب، منها الرغبة في الشهرة وجمع المال، وانتشار الجهل بين العامة، وأخذهم كل ما يقال لهم، وعدم وجود رقابة دقيقة تميز العالم الحق من مدعي العلم، وضعف جاهزية التعليم في ذلك العصر بسبب الانشغال بأمر أخرى سياسية واقتصادية وغيرها، مما دعا كل من وجد في نفسه قدرة على إثبات أنه عالم خاض في هذا المجال لأن هذا المجتمع يأخذ كل ما يقال، خصوصاً إذا كان صادراً ممن يحمل لقب عالم، ومن راع اتخذوا دين الله هُزأةً ولعباً، وعلوم الشريعة هراءً وهواءً ولغياً... لا يهتدون طريقاً، ولا يرتدون وريقاً ولا يقتدون فريقاً رقيقاً، ساء أدبهم، فلم ينجح طلبهم، ولا أدرك أربهم، ولا خمد مذهبهم، كمثل الحمير الظالمة، والشريد الفالة، ولا يصلحون لخطاب ولا يفلحون في سؤال فضلاً عن جواب، من ذا الذي لمثل هؤلاء يتراءى؟! وينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ويرى انه يضع العلم

1 ابن جماعه، تذكرة السامع والمتكلم، ص 30، 33، 39. النووي، آداب السامع والمتكلم، ص 40، 41

2 السيوطي، شرح المقامات، ص 417.

حيث لا يصلح له وعاء، ويناهز من أضحى بزة سرقةً ونصّره عُواءً وإن استطال»<sup>(1)</sup>

ولكن المعضلة الأخرى تكمن في فخر مدعي العلم بشعوره بأنه مطلوب من الكل، ولكنه لا يعلم أن وراء هذا التقرب منفعة مرجوة " إنك صرتَ بحيثُ أنَّ الناسَ يترددون إلى بابك، ويلتاذون بجانبك، فما ترددوا إليك لعلم أو فتياً، بل لقضاء مآربهم في الدنيا، فمنهم من يخشى أذاك، ومنهم من يتوفى بذاك، ومنهم من يتوهم أنك تساعده إذا عرّضت له مهمة، أو أملت به مئمة، وكان بعض من يُعول عليه، يُشبهه مثلك بالخلاء، يُترددُ لقضاء الحاجة إليه"<sup>(2)</sup>، ولقد عمل السيوطي على عقد مقارنة بين العالم ومدعي العلم بقوله: "إنما لم تكن لك فتاوى لأن الناس ما استفتوك" فيكفيك، أعظم شاهدٍ على صدقي هذا الذي خرج من فيك، فلو علمَ الناس أن عندك علماً لاستفتوك، ولو هربت منهم إلى ما وراء النهر كما فعل غيرك لأتوك، ولألحوا عليك في القيام بهذه الحقوق ولدخلوا وراءك في الجحور والشقوق، ولحرموك الأكل والشرب والنوم ولحاولوك العام بعد العام، والشهر بعد الشهر، واليوم بعد اليوم، إلا ترى إلى شيخ الشيوخ صلاح الدين كيف تزدهم عليه الأنام، وتسام إليه الفتاوى والأحكام، وحرمَ لاشتعاله بذلك القيلولة والمنام"<sup>(3)</sup>

### ومن الألقاب التي تخص العملية التعليمية:

المتحدث: وهو من يتصدى لحديث النبي — صلى الله عليه وسلم — بالرواية والدراية، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد<sup>(4)</sup>.

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 1011-1013.

2 السيوطي، شرح المقامات، ص 772 .

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 808، 809. صلاح الدين هو محمد بن يوسف الحنفي المعروف بالشيخ صلاح الدين الطرابلسي، كان عالماً فاضلاً مفتياً بارعاً في مذهبه، ولي مشيخة المدرسة الاشرفية بدلاً من برهان الكركي توفي(899هـ). أنظر ابن اياس، محمد بن أحمد (ت930): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط2، دار احياء التراث — القاهرة ، 1963، ج3، ص 301 ، 302

4 القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت 821) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط 1987م ، ج 5 ، ص 43

الشيخ: لقب يقترن بأسماء العلماء وهو غالباً ما يلزم لهم، ويلقب به أهل العُلن توقيراً لهم (1).

المعيد: وهو أقل رتبة من المدرس الرئيس وتتحصر مهمته في إعادة إلقاء الدرس بعد إنتهاء المدرس منه ليفهمه الطلاب (2).

المُدّرّس: وهو لقب علمي يوازي لقب أستاذ في عصرنا الحالي (3).

المقرىء: ومهمته قراءة القرآن الكريم (4).

ونلاحظ مما سبق أن العلماء درجات متفاوتون في الصفات منهم العالم الحق ومنهم من يدعي العلم وينسبهُ إلى نفسه. إلا أن هذا الاختلاف بينهم لم يمر مرور الكرام دون أن يترك أثراً بارزاً على نفوسهم، وعلى الحصيلة العلمية .

وهذا ما سوف نوضحه في الفصول القادمة من خلال تبيان الخصومات في

إثراء النتاج العلمي

ونتيجة هذه الاختلافات بين العلماء ومدعي العلم ظهرت الخصومات بين الطرفين، ولكلٍ منهما سلاح فسلّاح، العالم علمهُ وأخلاقه، ومعرفته بالسير الذاتية ومدعي العلم للرد عليهم، أما مدعي العلم الذي لا حول له ولا قوه إلا منصبهُ وماله وشعوره الكاذب بحاجة الناس إليه .

ومن ابرز الخصومات التي دارت في ذلك العصر خصومات السيوطي مع (شمس الدين السخاوي، وأحمد بن الحسين بن العليف، والبرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوهري والشمس الباني، وكان أشد خصومه السخاوي الذي كان يقود هذا الفريق، ويتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاته والإغارة على كتب المكتبة المحمودية واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للمعاصرين بها) (5).

---

1 القلقشندي ، صبح الاعشى ج 6 ، ص 17

2 نفسه، ج 5 ، ص 436

3 السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ، ص 83

4 القلقشندي، ج 6 ، ص 436

5 السخاوي، الضوء اللامع : ترجمة السيوطي

وتعود أسباب هذه الخصومات إلى الحسد والبغضاء، أو خلاف عميق في الرأي، (ومن الموضوعات التي حُسد عليها السيوطي دعوات الاجتهاد وأنه تبعاً لذلك الإمام الذي أرسله الله على رأس المائة التاسعة ليجدد للأمة دينها) (1)، وهذا ما أشار إليه السيوطي في مقامته الموسومة "طرز العمامة في التفريق بين المقامة والعمامة"، حيث تحدث ابن الكركي بأسلوب ساخر من السيوطي (أنزل ملكٌ من السماء إن هذا بعثه الله في هذه القائمة) (2)، ورد عليه السيوطي بقوله: فهل ملكٌ من السماء للمبعوثين قبلي في المئين الثمانية المتقدمة من أولئك الفئة؟! أم علموا ذلك هم والناسُ بغزارةِ علومهم واتساعهم. ورسوخ قديمهم وطول باعهم، وسعة دائرتهم واطلاعهم، وانتشار علومهم في الأمصار، وسير تصانيفهم إلى الأقطار، كما وقع لي ذلك فضلاً من العزيز الغفار؟ فليس في الإسلام قُطرٌ إلا وقد وصلت تصانيفي إليه، ولا مصرٌ إلا وتجد شيئاً من كُتبي لديه، ووصلت إلي من علماء الأمصار المطالعات والرسائل، ما بين راغبٍ في تألّفي وطالبٍ لجواب ما بعث به من الفتاوى والمسائل، ولو كان هنالك أحد بهذه المنزلة، لوصل إجباره إليّ كما وصلت الأخبار مني له) (3).

وسوف نترك الحديث عن هذه الخصومات والردود عليها بشكل مفصل عند الحديث عن المناظرات والتأليف. وكلنا نعلم أن لكل عالمٍ أتباعاً، وهم اخلص المقربين إليه ويُناحرونه في كل صولاته العلمية، تلاميذهم الذين تعلو مكانتهم بمكانه معلمهم، ولقد أشار السيوطي إلى استغلال مدعي العلم الذي يقلُّ معرفةً من طلبته ويعد من طلبة طلبته لدنوا معرفه العلمية (خصوصاً وأنت في طلبة طلبتي معدود) (4) وأضاف أيضاً عن دور التلاميذ الذين يستغلون من قبل مدعي العلم (كم لك على تلميذي القييري من اشتغال، وبحث عند التنازع في الأعمال، وكم نداءً واستغاثةً

---

1 الشكعة، جلال الدين السيوطي، ص 82

2 السيوطي، شرح المقامات : ص 687

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 678 3

4 السيوطي، شرح المقامات، ص 804

وندية، وكم فجر لك من دُمْلٍ وفرج لك من كُربةٍ، وكم جرّك لفضلٍ ودُروسٍ، وبرك  
بأكلٍ وفُلوسٍ، وكم دَعَاكَ لخدمتهِ (1)

وهذا النص أشار فيه السيوطي إلى استغلال بعض العلماء التلاميذ النجباء واجتلاب ما يريدُه من علوم بكل راحةٍ يحصل عليها وذكرتُ هاتين الحالتين لأنهما قضيتان مهمتان تُبرزان تفوق الطلبة ومدى استغلالهم من قِبَل مدعي العلم. بعيداً عن دور الطلبة المعروف من تلقي العلوم والعمل كمعيد إلى جانب أستاذه وهذا ما سوف نذكره أيضاً. في جانب سير العملية التعليمية، ولكن هل كل من تعلم حرفاً أصبح عالماً، ودون أن يحمل يؤهلهُ لهذه المكانة، بالطبع لا، فعلى كل من يرغب أن يحمل لقب علم عليه أن يحصل على الإجازة العلمية من أجل ممارسة التعليم، وهذا ما سوف نناوله في الموضوع التالي.

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 804

## الفصل الثاني الإجازات العلمية

### 1.2 الإجازات العلمية

لم يعرف العصر المملوكي ما يعرف بالامتحانات التي تقرر جاهزية طالب العلم للتعليم أو مزاولته، بل ظهر ما يعرف بالإجازات العلمية، التي تعد الصورة البدائية لما يعرف بالشهادات في زمننا، حيث تنبئ بإنها الطالب مادةً تمكنه من تحديد تخصصه. وأشارت المصادر إلى وجود ثلاث طرق للحصول على الإجازات ومن هذه المصادر ما ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاد (الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروضات الكتب ونحوها) (1).

#### 1.1.2 الإجازة بالفتيا والتدريس

جرت العادة انه اذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، (ويكتب له بذلك وأن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض، وتكون الكتابة بقلم الرقاع اسطراً متوالية بين كل سطرين نحو أصبع عريض) (2) ومن الأمثلة على هذه الإجازات، إجازة سراج الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسن المعروف بابن الملقن (ت 804) للقلقشندي بالإفتاء والتدريس في عام (778هـ)، إذ قال سراج الدين: (ما نسب إليّ في هذه الإجازة المباركة من الإذن بتدريس مذهب الإمام القُطّبيّ، محمد بن إدريس الشافعي - قدّس الله روحه - والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيح فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه، وبرع عليهم بالاستحضار وتحريّر المنقول ووفائه) (3)

وهذه الإجازات تكون إما بالإفتاء والتدريس كإجازة السابقة، أو بالتدريس كإجازة القشيري لعماد الدين محمد بن علي بن الحسين القوصي، مُنح الإجازة

1 قلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج 14، ص 364، 365

2 القلقشندي، صبح الاعشى، ج 3، 8، 14

3 القلقشندي، صبح الاعشى، ج 14، ص 368

650هـ، أما الإفتاء الإجازة التي منها علي بن وهب للفقير الشافعي محمد بن صادق بن محمد الأرمني (ت 690 هـ).

الإجازة برواية: وتتمثل بتقديم طلب من العالم إلى من هو أعلم منه، يطلب منه الإجازة لنفسه، واكبر مثال على هذه الإجازات، إجازة أبي حيان الغرناطي لصالح الدين الصفدي (وكتبت له أستدعي إجازته بما صورته ... إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه .... فسح الله في مدته - من المسانيد والمصنفات والسنن والمجاميع الحديثية والتصانيف الأدبية، نظماً ونثراً إلى غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها مما تلقاه ببلاد الأندلس وإفريقيا والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية، وغيرها من البلدان، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامه كيفما تؤدي ذلك إليه، وإجازة ماله. أدام الله إفادته من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والأدبية وغيرها من نظم ونثر إجازة خاصة، وإن يثبت بخطه تصانيف إلى حين هذا التاريخ وان يجيز إجازة عامه لما يتحدد من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوزه منعماً متفضلاً أن شاء الله، فكتب الكتاب ما صورته: (أعزك الله ظننت بالإنسان جميلاً فغالين .. وقد أجزت لك أيدك الله - جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقيا وديار مصر والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع أو مناولة وإجازة بمشاهدة وكتابة وغير ذلك، وجميع ما صنفته واختصرته وجمعتة وأنشأته نثراً ونظماً، وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء) (1)

## 2.1.2 الإجازات بعرض الكتب:

جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر، فيقع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضيع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فان مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدلل بحفظه تلك المواضيع على حفظه لجميع

1 المقرئ التلسماني، احمد: نفع الطبيب من غصن الاندلس الرطيب، شرح مريم الطويل ، دار

الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1996م، ج3، ص293،294

الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء) (1)

ومن الملاحظ مما سبق ان للإجازات العلمية شكلين، وهذا ما أوضحه أحمد الشلبي في كتابه الموسوم "التربية والتعليم في الفكر الإسلامي"، إذ الإجازة إما سماعاً أو لفظاً. سماعاً: هو لفظ اصطلاحي أُطلق على الشهادات التي وردت بها بعض النماذج والتي تُمنح بعد ان يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا من ذلك ويُمنح (سماعاً) ويبيح المدرس فيه للطالب ان يروي منه ما رواه له) (2)

اما اللفظية (وهي الدالة على إذن يمنح بدون تعليم يمنحه شيخ إلى آخر يجيز فيه الأول للثاني رواية أحاديث معينة رواها الأول أو درس كتاب ألفه) (3).

ولكن هل أكدت النصوص النظرية (المقامات) ما روتهُ لنا كتب التاريخ والأدب، والمُلاحظ على ما ذكره السيوطي في مقاماته أثر الأجازات السلبية وخصوصاً إجازة رواية الأحاديث الباطلة التي ذكر عقوبة روايتها ومقرها (أن من روى حديثاً باطلاً أو أقره، كان النبي صلى الله عليه وسلم – خصمه يوم القيامة) (4)، ولكنها أشار إلى ما يعرف بالتقارض التي تُعد من نفس جنس الإجازات إلا أنها عبارة عن شروحات من كبار علماء على مؤلفات العالم (ولعل إيراد السيوطي بعض تقاريض شيوخه... ما يدل بوضوح على أن مثل هذه التقاريض كانت باعثاً له على الكتابة، واعترافاً مبكراً بأهليته للتأليف) (5)

---

1 القلقشندي: صبح الاعشى، ص 369

2 الشلبي، احمد: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مكتبة النهضة العربية المصرية – القاهرة، ط 11، 1999، ص 266-

3 الشلبي، التربية والتعليم، ص 266

4 السيوطي، شرح المقامات : ص 230.

5 الدروبي، ظاهرة التعدد والكثرة ص 51

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنّ من الفنون أو نظم شاعرٌ قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يكتُب له أهلُ تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والقدح معاً، ويأتي كلُّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك<sup>(1)</sup>.

ومن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلّي الشافعي... وقفت على هذا التصنيف... ونشر به في المذهب الشافعيّ أعلامه... كم فيه من دليل لا يُعارض بما ينقصه، وكم فيه من حُجةٍ يكلُّ عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه؛ قد أيدها ادّعاؤه بالحديث والأثر، ونقل مذهب كلِّ إمام سبق وما عثر، لقد سرّ الشافعي بنص قوله الذي هدّبه، وجعل أعلام مذهبه مُذهبةً<sup>(2)</sup>.

ومما تقدم نجد ان الإجازات العلمية تعدّ عنصراً أساسياً في العملية التعليمية فهي تأشيرة الدخول لعالم إلى حرم الحياة العلمية في أي مجتمع كان، وهي إحدى العلامات الفارقة بين العالم ومدعي العلم، والممهد الأقوى في نشر علم العالم بعد مصنفاته.

ومن الإجازات (ما حرص السيوطي على نيله من شيوخه وخاصةً الإعلام منهم وقد أجاره البلقيني محمد بن موسى السيرافي (ت 891هـ) والكافيجي<sup>(3)</sup>) وكانت تقام احتفالات بالانجازات الثقافية وعن ذلك يقول المقرئ "في يوم السبت 8 شعبان سنة 842هـ، جمع الحافظ قاضي القضاة أبو الفضل أحمد بن حجر أعيان الدولة وفيهم المقام الناصري ممد ولد السلطان (جقمق وغيره من الأمراء وكاتب السر وناظر الجيش والوزير والقضاة وشيوخ العلم في عامة طلبه العلم وغيرهم وفاجتمعوا بأعلى الخمس الوجوه من ارض التاج خارج القاهرة وكان الوقت شتاء والأرض مخضرة بأنواع الزراعات، والخيول على مرابط ربيعها وقدم لهم أنواع الحلوات وألوان الأطعمة الفاخرة ما يجلُّ وصفه ويكثر مقدارة، وقد أكمل تصنيف كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" في عشرين مجلداً، ثم قرئ من آخره

1 القلقشندي: صبح الأعشى، ص 378

2 القلقشندي: صبح الأعشى، ص 378

3 الدروبي : ظاهره التعدد والكثرة، ص 51

مجلس خفيف، وقام بعد ختمه الشعراء فقرأ عدة منهم قصائد في مدحه هذا وقد اجتمع بهذه المنظرة وحولها من أسفلها عالم كبير من الرجال وغيرهم، نصبت هناك سوق وضربت خيام عديدة فكان من الأيام المذكورة التي لم تعهد في معناه مثله، انفق فيه مال جزيل على ما قدم من المأكل، وما أجز به الشعراء في هذا اليوم وفي يو آخر بعد أن اجتمعوا فيه بخانكاه ببيرس من القاهرة، وقام فيه شعراء اخذ بمدائحهم، فأجزوا بجوائز عديدة، وفرق أيضاً مال جم في جماعة كثيرة، كتبوا هذا الشرح، والحافظ المشار إليه يُمليه عليه بهذه الخانكاة حتى أكملوا نسخه في أعوام، فكان هذا من المأثرة السنية والفضائل الجليلة التي زادت في رفعته<sup>(1)</sup>. ومن خلال هذا النص يبين لنا أن صاحب الرعوة هو المؤلف نفسه، وتقدم خلال هذا الحفل أنواع مختلفة من الحلوى والأطعمة على نطاق واسع وذلك لكثرة الحضور المجتمعين لمشاهده الاحتفال ومقام الشعراء والجوائز التي تقدم لهم، والقيام بعمل نسخ يُملئها المؤلف على النسخ كي يتوفر بأعداد كبيره لمن يرغب بالاطلاع عليه، وكانت مدة الاحتفال يومين الأول أُقيم في ارض التاج خارج القاهرة والثاني بالخانكاة البيبرسية.

---

1 المقريزي، تقي الدين احمد بن علي(ق845ه): السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعه لجنه

الكتب والترجمه والنشر، ط2 1957م 1019,1108,3,4

## الفصل الثالث

### المناظرات

من أبرز مظاهر النشاط الفكري في ذلك العصر المناظرات والمحاورات التي كان القوم يعقدونها ويخصونها بإهتمامهم، ولكن هذا الاهتمام نابع من تنافس العلماء فيما بينهم، من أجل إثبات أحقية توأجدهم في الساحة العلمية. فالمناظرة لغةً: مشتقة من الفعل ناظر على وزن فاعل وتعني اشتراك شخصين في أداء عمل واحد في الوقت نفسه<sup>(1)</sup> إلا أن هذا المفهوم تطور إلى الاصطلاحية وكان ابن منظور هو أول من لامس روح المعنى الاصطلاحي لهذا المفهوم (والمناظرات أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه)<sup>(2)</sup>

اصطلاحاً: المناظرة علم يُعرف به كيفية آداب إثبات المطلوب، أو نفي دليله مع الخصم) و(وهي النظر من الجانبين في النسبة بين الشئيين إظهاراً للصواب)<sup>(3)</sup> وامتاز العصر المملوكي بصراعات فكرية عنيفة بين العلماء وأعوانهم، وكان أساسها الخصومات القائمة بينهم، إذ ذكرت كتب الأدب وتراجم الأدباء، ما يشير إلى انتشار المناظرات بينهم، ومن أشهر قضيه في التاريخ قضيه خلق القرآن الكريم والسؤال المطروح هنا، هل لها شروط وأشكال وموضوعات وما حكم الشرع فيها؟

---

1 الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد

الغفور، دار العرب للملايين \_ بيروت، ط 4، 1990، ج4، مادة نظر

2 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت711) لسان العرب، دار الكتب العلمية \_

بيروت، 2003م، م10، مادة نظر لسان العرب مادة (نَظَرَ)

3 طاش كبرى زادة رسالة آداب البحث وشرحها. بسلسلة نفائس المخطوطات رقم 4. دار

المعارف \_ بغداد، 1955، ص28. نقلا عن الصديق، حسن المناظرة في الأدب العربي

الإسلامي، المصرية العالمية \_ مصر، ط 1، 2000م، ص 60.

### 1.3 شروط المناظرات

- 1- يجب أن تدور بين طرفين على الأقل، يسعى كل منهما إلى دحض رأي الآخر بالأدلة والبراهين، قائمه على أساس الحوار أو المكاتبات لكن الحوار القائم بين المعلم والمتعلم لا يعد من المناظرات<sup>(1)</sup>
- 2- أن يكون هدف المناظرة إظهار الحقيقة التي يعتقد كل من الطرفين امتلاكها.
- 3- لا يمكن الوصول إلى هدف المناظرة إلا عن طريق النظر والبحث عن الحقيقة بوساطة البصيرة فالبصيرة هي صفاء القلب وأداته هي الوصول إلى الحقيقة، والقلب هو جوهر الإنسان ومصدر الإلهام<sup>(2)</sup>.
- 4- الهدف من المناظرة إبراز الفرق بين المناظرة والجدل. فالجدل يكمن هدفه في الدفاع عن قضية ما وليس إظهار الحقيقة المطلقة<sup>(3)</sup>.
- 5- لعل إلحاح المؤلف وتأكيد على أن هدف المناظرة هو الحقيقة المطلقة يأتي من كون المؤلف قد رأى أن غالبية سابقه من أعلام المناظرين لم يكونوا في المناظرات بهذا الهدف<sup>(4)</sup>.

المناظرات في المقامات: أما المناظرات الأدبية في المقامات كما أوضحها لنا السيوطي بأنها مناظرات علمية تقوم بين طرفين بينهما خصومه وعدائية، بسبب تفوق احدهما على الآخر، بكثرة مصنفااته التي تعد إشارة واضحة على غزارة علمه وتبحره في صنوف العلم، ومن خلال المقامات تبين لنا أن المناظرات لها عناصر رئيسية وهذا ما أوضحه لنا السيوطي في مقامته. وبداية هذه المناظرات الخصومات بين العلماء، التي أثارت حفيظتهم للمارزة فيما بينهم، ليبرزوا ما لديهم من علوم، (ثم إنك تلهج بذكر المناظرة وأنت لا تتصور ما لها من الكيفية، ولا تدري ما قرره الأئمة لها من الشروط الوافية، وأكثر ما عندك أن تحفظ أسئلةً مذكورةً في "الكشاف"،

---

1 صديق، حسين: المناظرات في الأدب العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان،

2000، ص 60

2 انظر نفسه، ص 61

3 انظر نفسه، ص 62

4 انظر نفسه، ص 62

وتلقبها على التعنت لا الإنصاف، ويكونُ لذلكُ السؤالُ عدةً أجوبةً وتوجيهاتٍ في غيره من الكتبِ مُهذبة، فإذا أُجبت بشيءٍ منها رددتهُ بُفحشٍ وبذا .. وقلتُ لا، ما قال صاحب "الكشاف" كذا، فهل قال لك صاحب الكشاف: إنه لا جواب غير الذي في كتابه؟! ما هذا الذي تفعلهُ طريقةُ المناظرةِ ولا ناظرٌ أحدٌ هكذا في الأزمنة الغابرة، إنما طريقةُ المناظرةِ ما أنبئك به فاستفده مني واروه عني، كان أئمةُ الدين إذا أرادوا المجاهرة، و عقدوا مجلساً للمناظرةِ هما فريقان: مُحدِّثٌ و فقيه، فالمحدِّثُ يُلقي أحاديثاً ويسأل عن حالها صحةً وضعفاً، والفقيه يُلقي مسألةً خلافيّةً، وينتصر لأحد القولين، و يقيم الدليل عليه بالنقل والقياس بجدٍ واجتهاد<sup>(1)</sup>.

ويوضح لنا هذا النص المقتبس من مقامة "الدوران الفلكي على ابن الكركي"<sup>(2)</sup> خطاب السيوطي الذي وجهه إلى ابن الكركي الذي يطالب بالمناظرة لكي يثبت لناس قدرتهُ بالتفوق على السيوطي وعدم اقتناعه بما حدث له في المرة الألى، مشيراً إلى وجود شروط خاصة بالمناظرات يجب مراعاتها، وعلى المتناظر أن لا يعتمد على كتاب الكشاف الذي يشمل العديد من الأسئلة والإجابات التي يمكن للمتناظر الرجوع إليها، ويحفظها، علماً بأنها ذات سلبية كبيرة، إذ يرد كل ما يطرح من إجابات وذلك لحفظ المتناظر إجابةً واحدة غير التي يعرفها المتناظر الثاني من إجابات جديدة من كتب مختلفة، كل من الطرفين يلقي ما يناسب علمه ويقدم عليه الدليل والبرهان.

### 2.3 أخلاقيات المتناظرين في كتب الأدب والتاريخ:

- 1- لا يجوز للمتناظرين رفع الصوت أثناء المناظرة.
- 2- يجب أن يسود المناظرة الهدوء والنظام، ويجب استبعاد الجلبة والفوضى الناتجة عن اشتراك كل الحاضرين في الحديث.
- 3- على المتناظرين قبول الحق والتسليم به في حال ظهوره مع احد الخصمين.

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 385 - 386

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 1 ص 370-419

4- يجب تجنب المناظرة للمناظرة؛ لان ذلك يؤدي إلى الجدل والشغب اللذين يفقدان المناظرة اتزانها ويحرفانها عن هدفها (1)

أما أخلاقيات المتناظرين (وذلك بأدب وحفظ لسان، وحسن تصرف، في الكلام وإحسان، وسكون أطرافٍ واذعانٍ للحق واعترافٍ وتقديمٍ صحيحٍ للنية، وإخلاصٍ للطوية، ولا يقصدون بذلك الا وَجْهَ الله الكريم) (2) وهذا النص أوضح من أن يُفسر، مشيراً إلى اخلاق العالم الحق، أما أخلاق مدعي العلم في المناظرات (أما أنتم فلا تتصورون شيئاً من ذلك، ولا تدرون كيف تسلكون هذه المسالك؟! بل تتجادلون الأهواء، وتخبطون خبط عشواء تخرجون إلى المشاتمة والمسافهة، والملاعنة بالمشافهة، فهل هذا فعل المجانين؟! فعل المعتنين بالعلم والمعانين، وإن كانت النية قبل ذلك غير صحيحة، والقلوب بالإخلاص غير سمحة) (3) أما الهدف من هذه المناظرات، هو إحياء العلم على الطريق الصحيح، والسير في هذه المناظرات على نهج السلف، محتاجين بذلك إلى الدليل والبرهان (.. وإحياء العلم على الطريق المستقيم هذا مصطلح السلف ومن اقتفى آثارهم من الخلف) (4)، أما حكمها الشرعي، فقد أشارت المقامات إلى حكم المناظرات مع تبيان أسباب التحريم والإباحة. وتكون مباحةً إذا (شرعت المناظرة عند وقوع الاختلاف في فتيا، فيتكلم فيها المفتون نقلاً وبحثاً، نصاً ورأياً إقامة لكلمة الله العليا، وإظهاراً للصواب في الحكم وإحياء) (5)

(وخلطت من سائلٍ مستفيداً جد لي والكلام فيها بعيداً عن التحريم والعقاب من الوجوب والثواب، والجواب فيها متعين، ووجه القربة بالخوض فيها بين) (6) أما حكم تحريمها (.. يلهج بذكر المناظرة التي هي حرامٌ بإجماع العلماء في جميع

1 الصديق: المناظرة في الأدب، ص 96

2 السيوطي، شرح المقامات: ج1، ص 387

3 السيوطي، شرح المقامات: ج 1، ص 387

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 1، ص 387

5 السيوطي، شرح المقامات: ج 1، ص 387

6 السيوطي، شرح المقامات : ج1، ص 387

الإعصار، ونهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوعدَّ عليها، ببيتٍ في النار، وعن بعض العلماء انها موجبةٌ للإكفار، ولم يستح من الله تعالى ومن النبي صلى الله عليه وسلم حيث يطلب شيئاً هو منهي عنه ومُحرَّمٌ<sup>(1)</sup>. أما طبيعة الموضوعات المطروحة فهي تتفاوت بتفاوت مستوى المتناظرين بالسهولة، وخير مثال على ذلك وصف السيوطي لإحدى مواجهاته لابن الكركي (فأخذ يتعنَّتي بالمسائل واحدةً بعد أخرى، يطارحني بما أنا بل بعض طلبتي به منه أدرى)<sup>(2)</sup> (إنما شرعت المناظرة عند وقوع الاختلاف في فتيا)<sup>(3)</sup>، (وأما الحديث وما أدراك ما الحديث)<sup>(4)</sup> وهذه الموضوعات تطرح على شكل قضايا في المناظرات .

(وسالته عما فيها من الخاص والعام، وما الفرق بينه وبين ما في الأصول من ذلك وعلم الإحكام؟! وما فيها من المطلق والمقيد ومن كل نوعٍ بناه الباني وشيد.... ومعاني أبياتٍ مشكلةٍ وأسبابها وفتحتُ معه الكلام في الفقه وأصوله على طريقة الاجتهاد والاستدلال، وفجرت له يُنابيع الأدلة وما عليها من مقالٍ من بحثٍ وسؤال، ونزاعٍ وجدالٍ وردٍ وإقبالٍ ومسالكٍ إعتلالٍ وخضتُ به ساحلَ المعارضات والمناقضات)<sup>(5)</sup> .

ومن أشهر المناظرات التي ذكرها السيوطي في مقاماته صورةٌ لإحدى المناظرات بين محدثٍ وفقهه (عقدوا مجلساً للمناظرة، هما فريقان مُحدثٌ وفقهه، فالمحدث يُلقي أحاديثٍ ويسأل عن حالها صحةً وضعفاً، وعن ما فيها من علةٍ فادحةٍ تخفى، فهناك قد تبين الناقدُ ويظهر اليقظانُ من الراقِد، والفقيه يلقى مسألةً خلافيّةً، وينتصر لأحد القولين ويقيم الدليل عليه من النقل والقياس بجدٍّ واجتهاد)<sup>(6)</sup> .

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 966

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 378، ج 2، ص 966

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 376

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 378

5 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 379

6 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 382، 383

ومناظرة السيوطي والجوهري، وما فعله الجوهري بالسيوطي حيث تفوق عليه، إذ كتب الجوهري على رقعةٍ أفتا فيها السيوطي بأنه قد أخطأ في هذا الرأي وشاع هذا الأمر (ومن جملتها كتابته تحت خطي في رقعة الإفتاء المتعلقة بمسألة رعاية الغنم)<sup>(1)</sup>

ولا ننسى مناظر ابن الكركي مع خادم السيوطي التي تُعد أكبر إهانته ودليل على ضعف ابن الكركي في الساحة العلمية (لقد ناظر ك خادمي فما طلعت لك معه طالعةً، ولا برقت لم معه بارقة، وأقام عليك من الكتاب والسنة والحجة وأرشدك إلى سواء المحجة، فقابلته بالإساءة فحفظ لسانه ووقرك)<sup>(2)</sup> وأشار إلى العقوبات الواقعة على الخاسر بالمناظرات، وما يحكم عليه العلماء (فأفتينا بتأديبك وتقويمك، بآلة التعزيز وتهذيبك، وأرد أن يرفع أمرك إلى الحكام)<sup>(3)</sup> ومن العقوبات أيضاً (ومن العجب أنه قال عند طلب المناظرة: نتراهن بخلق الذقون فيا أهل النهى والعقول هل فاه بذلك العلماء الموقنون؟!)<sup>(4)</sup> ومن المناظرات القائمة على الحوار ما ذكره لنا في مقامته الأسيوطية. وفي الختام يتضح لنا أن المناظرات تقوم على عناصر متمثلة بالشخوص (المتناظرين، الحكام، الحضور)، وموضوعاتها (الألغاز، الفنون اللغوية والأدبية، والدينية أو العقائدية وفي مختلف العلوم)، ولها أماكن متعددة وقد تكون مشروطة أو دون شروط هدفها نشر العلم، وإثبات جدارة العالم والرد على الخصوم، أو التسلية.

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 386

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 744

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 384

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 484

## الفصل الرابع الحركة التأليفية

شغلت العملية التأليفية حيزاً كبيراً في التاريخ، وتتنوع بتنوع الموضوعات وأهميتها فمنها كتب التراجم، والطبقات (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لمحبي الدين الطبري المكي "ت 684هـ" وطبقات الأطباء عند تاج الدين أبي طالب علي ابن الساعي البغدادي "ت 674هـ" إذ اشتملت كتب التاريخ على نوع من السرد القصصي التاريخي.

إلى جانب ذلك التأليف الموسوعي كمناهج الفكر ومناهج العبر لجمال الدين الوطواط "ت 718 هـ"، وطال التأليف جميع الموضوعات من فلك وجغرافيا ومعادن ونبات وحيوان وكيمياء وطب، بالإضافة إلى المعاجم كلسان العرب. إلا أن الاجتياح التتري أثر على اللغة العربية بين طبقات الشعب ذلك لأن المماليك لم يكونوا عرباً، ولكنهم مسلمون، عنايتهم بالدين هي التي دفعتهم للاهتمام باللغة العربية وأولوها عنايةً كبيرة لأنها لغة الإسلام وظهر عددٌ كبير من المؤرخين وكتّاب السير.

والصفة العامة على مؤلفات ذلك العصر تمثل باختلاف الموضوعات سواء أكانت دينية أم لغوية أم تاريخية، حيث يصدر عليها الحكم إما بالحسن أو بالقبح مع ذكر الشواهد والأدلة، فإذا كان المؤلف شارحاً فإنه ينقد صاحب المتن الذي تصدى لشرحه أو المصنف الذي اطله عليه باختصاره إن كان مطولاً أو بسيطاً، التأليف في المقامات: اشتملت المقامات على كثيرٍ من الإشارات حول حركة التأليف في العصر المملوكي حيث وضّح لنا منهجيتهم في التأليف ابتداءً من اختيار الموضوع ودوافع البحث ومصادرة وتوثيق نصوصه، دون الإغفال عن قضية السطول على المؤلفات، التي أرقّت ذلك العصر وخاصة العلماء مع تدخل الدولة أو السلطة في هذه المعضلة.

موضوع البحث في المقامات: اشار السيوطي الى طبيعة الموضوعات التي شغلت فكرهم في ذلك العصر (فألفت كراسة على نمط (عنوان الشرف) في يوم

واحد، وكفى بالله تعالى من رقيب على ذلك وشاهد، وضمنتها عربيةً وعروضاً، ومعاني وبديعاً وتاريخاً، أبهى من جوهر القلائد، والكواكب الشواهد.... ثم وضعت لهم مائة كلمة تحتوي على مواظ وحكمة.... ثم اختبرت خيولَ ذهني في إنشاء مقامات) (1).

وقد يكون الموضوع علوم الدين والمسائل الفقهية، ومن ابرز هذه المسائل فتوى البروز على الشواطئ، التي أثارت الكثير من الجدل بين السيوطي وابن الكركي وفتوى هدم بيت الفساد على الشاطئ (فإنَّ تحريمَ البروزِ في شَطوطِ الأنهار مُجمَعٌ عليه بينَ المذاهبِ على مرِّ الإِعمارِ، وهو مكتوبٌ في كُتبِ مذهبي مذهبك من الأئمةِ الأخبارِ، فإنَّ جهلتَ بذلكَ فكفىَ بذلكَ عَلَيْكَ عَارٌ) (2). وقد تكون هذه الموضوعات أعراض الناس كما فعل السخاوي مع أكابر وأعيان البلاد حيث خاص في إعراضهم، وكان مواظباً على ذلك طوال القوت دون مراعاة حرمة الأيام (شهر رمضان)، (... أَلفَ تاريخاً جمع فيه أكابر واعيان ونَصَبَ لِأكلِ لحومهم خُواناً ملأه بذكر المساوي وثلب الأعراض) (3).

أما دوافع البحث التي كانت سبباً في عملية التأليفية: وهي الإشارة إلى أسباب التأليف التي دفعت إلى إيجاد هذا المصنف في حيز الوجود، ومن أهدافه (..... مشيراً إلى ما أصنّفه في الوقائع العلمية ذكرى لمن هو ناس، ورداً للخطأ ببيان الصواب وكشف الإلباس، وهذا فرضٌ من فروض الدين) (4) أما مصادر البحث التي يستقي منها المؤلف معلوماته التي يبقى عليها مؤلفاته والعلوم: فقد تعددت لدى العلماء في العصر المملوكي، وتنوعت من عالم إلى آخر، قد تكون المصادر لم يقف عليها من قبل (من نوادر البديع مالا ألم به أحد من أصحاب البديعات) (5) أو النقل

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 222-223.

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 753.

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 935.

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 706.

5 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 382.

من بعضهم البعض (بل نقل السبكي عن ابن عقيل الحنبلي) (1) دون إغفال المصادر الرئيسية وخاصة في أمور الدين من الكتاب والسنة (وأقام عليه من الكتاب والسنة والحجة وأرشدك إلى سواء المحجة) (2)، أو الرجوع إلى أحاديث العامة في التأليف كما فعل السخاوي في تأليف علومه إنما منتهى أمره كثرة السماع على شيوخ العامة والعجائز، وكتابة تواريخ ليس بها للفضل حائز) (3) هذه بعض الإشارات لمصادر موضوعات التصانيف

أما عن كيفية التعامل مع الأدلة والنقول ما على البحث إلا القيام بما يلي:

1- الإقبال عليها (ضمن أو وتأملها، والقي فكره لها ومالها، ونظر إليها منضفاً، وضح له منها ما خفا) (4)

2 - النظرة الفاحصة الدقيقة، وإيضاح ما هو غامض منها وإيراد ما ورد من آراء في هذا الأمر (فإن كان ممن إذا نظر في الأدلة مازها، ومازها، إذا قام قومه الرجال ماسها، وماسها) (5) وهذا ما دعا إليه من تمييز الأدلة وفصلها دون تكبر وفخر وغرور. وإختيار المناسب دون سهو أو غرور أو تباطوء

3- وضع الأدلة والبراهين والشواهد على المرجح من الآراء تأكيداً له

4- إنفاق المال على علمه وما يعمل من العلم إن كان من أصحاب اليسار في المال (وليركب في ترجيحه كل هول، ولينفق في نصرته من سعة ذات يده إن كان ذا طول) (6) واللجوء إلى التريح عند تعارض النقول. والمقصود هنا في حال تعدد النقول والآراء في قضية واحد على الباحث اختيار الأكثر اتفاقاً عليه بين العلماء. ومن خصائصها (لما قام عندي من ادلة قاطعة ساطعة ناصعة لامعة،

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 529، 530

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 744

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 948

4 السيوطي، المقامات: ج 1، ص 590

5 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 590

6 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 591

مانعة، هامة رائغة، صادعة قامعة<sup>(1)</sup> لكن هذه النقول والأدلة لها من أبداعها وهذا ما ركز عليه السيوطي في الجانب التوثيقي للمعلومة، وذلك بعزو النص بلفظه لصاحبه (وقد علم الله والناس من عادتي في التأليف أنني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ونسبته إلى ناقله، أداءً لشكر نعمته، وبراءة من دركه وعهدته)<sup>(2)</sup>، والهدف من هذا التوثيق هو الأمانة به (تجنب الخيانة- فأنها بنست البطانة- امتثالاً للحديث واقتداءً باللائحة في القديم والحديث، وتحرزاً عن الكذب والتشبع، وتوفيةً لحقّ التتبع، ورغبةً في حصول النفع والبركة ورفع تصنيفهم إلى أعلى درجة عن أسفل دركة، وقياماً بشكر العلم وأهله، وإعطاء السابق حقه لفضله)<sup>(3)</sup> وعلى الرغم من حرص العلماء على أداء هذه الأمانة إلا أن هناك من لم يلتزم بها، وهذا أدى إلى ظهور السرقات التأليفية كالسطو على الكتب وبعض الأفكار ونسبتها إما لنفسه أو لولي نعمته، ولدراسة هذا الموضوع لابد من تحديد أشكال السرقات وطرق الكشف عنها وعقابها ومن أشكالها أو أساليبها السطو على المؤلفات البكر الأفكار (نبذ الأمانة وراء ظهره وخان، وجنى ثمار غروبنا وهو فيما جناه جان)<sup>(4)</sup>

أو سرقة عبارات (فسرق جميع ما فيها بعباراتي التي يعرفها أولو البصر، وزواد على السرقة ونسبها إلى نفسه ظلماً وعدواناً)<sup>(5)</sup>، والإدعاء بتتبع جميع أوصال الموضوع (تتبعُ وجمعتُ) ومن أشكال السرقات التخيير للأفكار وجمعها في كتاب وعدم نسبتها للمؤلف (قد أغار على بعض ما فيه من الأبريز فنقله بعينه إلى كتاب جمع فيه أربعين حديثاً..... إذ لم ينسب القول إلى القائل)<sup>(6)</sup> ومن أشكالها أيضاً قيام أحد التلاميذ بالأخذ من مؤلفات شيخه وعزو الزيادات للأصول التي نقل منها

1 السيوطي، شرح المقامات، ج1، ص 597

2 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص 951

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 824

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 819

5 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص 819

6 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص 827

أُستاذهُ دون التنبية إلى أفكار أُستاذة (فأخذَ يصنف طبقات جمعَ فيها الأصل والمزيد، وعزا الزيادات للأصول التي نقل منها أُستاذهُ) (1) لكن موقف أُستاذهُ منه اللوم والعتاب (فكتب له ورقةً يلومه فيها أشد اللوم) (2) أما الشكل الآخر من السرقات هو الإغارة على الكتاب كاملاً وتصدير ما أورده بقوله (أغار على كتب المصنفين، ولم يؤدِّ الأمانة من المؤلفين) (3) ولسارق صفات، سارق صالح وناسخ ودعوى الاطلاع على الأصول والتغيّر في التصنيف، حرمان الثواب ولا يدافع عنه أحد، وخمول ذكره وعدم نشر مسروقة، (وليشك في دفتر الخائنين شكاً) (4)

هل هناك طرق لكشف السارق؟! (حكي السبكي وغيره عن الشيخ أبي حامد الاسفرايني أنه قيل له: أن فلاناً صنف كتباً بكثرة، فقال أروني إياها فرآها مسروقةً من كتبه، فقال بتر كتبي بتر الله عمره، فمات ذاك عن قُرب) (5) ومن أساليب الكشف أيضاً عمل مناظرة بين السارق ومن سُرِق من مؤلفاته بوجود محكم وذلك من خلال الحديث عن الموضوع المسروق لتحديد صاحب الحق ومن هذه المناظرات الكاشفة، المناظرة التي قامت بين مهذب الدين بن الخيمي ونجم الدين بن إسرائيل حين نظم مهذب قصيدةً وسافر وتركها في خلوته وسكن نجم الدين فوجد تلك الورقة فنسب القصيدة إلى نفسه، وقدم مهذب الخيمي من السفر، فبلغه خبر القصيدة فشكاهُ إلى أبناء جنسه وتحاكما إلى الشيخ عمر بن الفارض، وأمر كلاهما أن ينظم قصيدةً على رويها وبحرها، فلما سمع القصيدتين وعرف النفس قضى لابن الخيمي) (6) ونظم السيوطي (مقامةً ساحب سيف على صاحب حيف) (7)، تحدث فيها عن السرقات الأدبية ونسبة مؤلفات الآخرين إليه التي أُتهم بها، وأشهر هذه

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 827

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 826

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 827

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 830

5 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 825

6 أنظر السيوطي، المقامات: ج 2، ص 834

7 أنظر السيوطي، المقامات: ج 1، ص 554 – 566

الاتهامات إتهام السخاوي وبرهان الدين النعماني للسيوطي بسرقة مؤلف في الخصال الموجبة للظلال. لكن السيوطي اثبت احقيته في هذا المُصنّف وذلك من خلال حديثه عنه، و عما عاناه من جهد في السعي وراء جمع اشلائه.

(إني ألفت في ذلك تأليفين ..... أحدهما مطول يسمى:-"تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش".....والثاني المختصر يسمى:-"بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال)، وطلب الطلبة كلا الكتابين...إلا أنهم اكبوا على المختصر أكثر من المطول، وقرأوه عليّ أولاً فأول) (1) مكماً حديثه عن موقف الأمير برسباي الشرفي حين قصد بلاد الروم مصطحباً معه شهاب الدين الطباخ حاملاً معه العديد من مصناته بإشارة من الشيخ العلامة محي الدين الكافيجي، وصحب معه (بزوغ الهلال)، ولم يدخل بلداً من البلاد الشامية والحلبية إلا وكتب من نسخة. ثم تابع هذه المسيرة الأمير يشبك الجمالي بنشر كتبه في بلاد الروم، حيث نسخ هذا المختصر، وكان هذا الموقف شاهداً على دور السياحة في نشر العلم نُشر أيضاً في بلاد المغرب والتكرور والحجاز واليمن. وفي عام 880هـ — ابلغ ادهم السيوطي عن درس اللقاه السخاوي عن الخصال الموجبة لظلال العرش وبأنه أوصلها إلى ثمانين، فالسيوطي نفى هذا عن السخاوي، (فزعم هو أنه وصلها إلى الثمانين في كتاب ألفه وتأليف صنفه، ثم ادعى إني غرت على كتابه، وأخذت ما فيه من المتشابه، والله يعلم ويشهد انه مُبطل فيما أدعاه عليّ، وكاذب فيما نسبه من الإغارة إليّ، وأني لم أقف على كتابه هذا إلى الآن ..... ثم أن كتابي سار وطار في الأقطار وبلغ الناس منه الأوطار ودخل البلاد الشامية والحلبية....) (2) ومن أدلة دفع التهمة عن السيوطي أيضاً غير انتشاره هو أقدميه الكتاب وشكوى السيوطي هذه القضية إلى اليعقوبي وطلب منه أن يكتب له الزيادة، التي تُعد محور الخلاف ورفع هذه العريضة للخليفة بعد أيام عاد إليه أخبره عن حكم الخليفة، وهذا يدل على مدى إتحاد العلماء مع رجال الدولة في الجوانب العلمية وذب الذود عن العلم ومن يتربص به. يتم بين الخصوم وأعاونهم اتفاق يحمل معنى الانتقام من خصومهم

1 السيوطي، المقامات: ج1، ص 559 — 560

2 السيوطي، شرح المقامات: ج1

ويكون ذلك بجعل العالم مدعي العلم يطلع على كتبه وينقل منها كلام العالم وفي حال اطلاع الخصم عليها والاستفادة منها، يكون في هذه الحالة قد سرق من قوله واستفاد ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن تاريخ التأليف يحمي من الوقوع في مثل هذا اللبس وعلى الرغم من سلبية السرقات وضياع الحقوق الفكرية من أصحابها إلا أن لها إيجابية واحدة هي حفظ العلوم من الضياع وخاصة المضمون الفكري بصرف النظر عن صاحبها الأصلي سواءً أكانت سرقات بالبتير أم بالتخيير أو بالسطو على المصنف كامل المهم أثبات أحقية الأمة به كفكر. وفي الختام على الرغم من صعوبة التأليف وتوخي الدقة فيه إلا أنه يفضل على المناظرة (لأن العلماء نصّوا على أن التصنيف من فروض الكفايات، وقد يتعين والمناظرات على وجه المغالبة والمفاخرة حراماً كما تبين) <sup>(1)</sup> وتعود أسباب التفضيل للتصنيف إلى (أن التصنيف مُستمر النفع على مدى الدهر الزاهر والمناظرة منقضية للوقت، لما يستحق به من الله والمقت، فكيف تسوي بين فرض وحرام) <sup>(2)</sup>

---

1 السيوطي، المقامات: ج2، ص 708

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 708

## الفصل الخامس

### موقف السيوطي من عصره

يعد السيوطي ظاهرة علمية متميزة في عصره ومن اعلم أعلام القرن التاسع والعاشر الهجريين إذ تعرض للعدائية من خصومه أمثال السخاوي، ولهذه العدائية اثر بارز على السيوطي والسخاوي في مجال التأليف والرد على بعضهم البعض كقضية حديث سبعة يظلمهم الله في ضله واتهام السخاوي للسيوطي بسرقة الزيادة على هذا الحديث وترجم السيوطي لنفسه عما رزق من العلم واعتبار هذا الأمر مفاخره من قبل السيوطي، والسيوطي لم يخطئ في ترجمته لنفسه كغيره من العلماء أمثال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) وأبن خلدون في تاريخه ويقاوت الرومي في معجم الأدباء والمنتبع لسيرة السيوطي يرى مدى اهتمامه بالكتب والحكم الذي درسه على يد مشايخه فضلاً عما كان يقرأه بنفسه لنفسه، ومن جانب آخر ملازمة السيوطي لمكتبة محمود الاستادار التي عُرفت بالمكتبة المحمودية وكان بها أربعة الألف مجلد وعمل على فهرستها، أما من ناحية الرحلة وهي أمر ضروري لاكتمال تحصيل العلم فإن السيوطي لم يكتف بالرحلات الداخلية في هذا المجال، ونتيجةً لتعرض السيوطي للخصومات والهجمات قرر السيوطي الاعتزال عن الفتيا في اكثر من مقامة (المقامة المزهرية المسماة بالجنح إلى الصلح، والاستتصار بالواحد القهار والمقامة اللؤلؤية) يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنها تصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقى في الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة، وبعد ذلك انسحب من الحياة العامة وترك التدريس والإفتاء. الاستتصار بالواحد القهار يزيد السيوطي الأمر إبانة وتوضيحاً فيذكر أنه قاسى كثيراً من تصدية للفتوى ونال بسبب ذلك ما يشكل له عذراً وسبباً فلا يفتي بعد ذلك ولا يجيب سائلاً من مسألة.

وأما المقامة اللؤلؤية يشير فيها السيوطي إلى انسحابه من التدريس والفتيا شرحاً وافياً ويقول (.... ليس هذا زمان الصبر، الصابر فيه كقابض على الجمر،

رأينا فيه ما أُنذر به الرسول وصحت به الأحاديث والنقول) (1) ويمضي السيوطي في تقرير حال زمانه وتسجيل سوءات عصره مبرراً للقرار الذي اتخذته بالامتناع عن التدريس والفتيا في مقامته اللؤلؤية ويتضح لنا من خلال هذه المقامة كثرت الاستفسار عن سبب الامتناع لدى السيوطي عن الإفتاء والتدريس، حيث عاتب السيوطي من يعادية فيما أصدره من علوم وخاصة الإفتاء، وبينت أيضاً سبب المعادة على الرغم من التزامه الطرائق الصائبة وفي هذا المجال، وأشار السيوطي أيضاً إلى وجود أضرار قدماً عند اعتذاره عن الفتيا والتدريس وذلك (الشُّحُّ المطاع، ودنيا مؤثرة وهوى له ذو أتباع، وإعجاب كما ذي رأيٍ برأيه وذلك عين الابتداع، وقد مرجت الأمانات وكثر القائلون بالزور والشهود .... وخون الأمين .... وتكلم الرجل التافه في أمر العامة وتعلم المتعلم لغير العمل) (2) ويشير السيوطي في حال ظهور هذه الأسباب من شح ومطامع ومؤثرات الحياة ومغيراتها، إلى ترك الفتيا والتدريس لكي لا يختلط الحابل بالنابل .

وقسم السيوطي الذين تلقوا العلم على يده ثلاث طبقات، الأولى من اعترفت بجهود السيوطي (كانت خيراً طرفاً، ديناً وفضلاً وصدقاً وعزماً، فحياها الله وبياها) (3).

أما الطبقة الثانية: هي التي لا تعترف بفضله عليها (تعرف وتتكبر، تذم وتشكر، وهذه يُحمل أمرها ويروج سعرها ويخفف أمرها) (4).

أما الطبقة الثالثة: هي الأشد عدائية وطغياناً (الله أكبر ما أكثر شرها وأكبر شرها وواشد إمرها وأنكر أمرها وأعظم إمرها أقوى فجورها... وبهتانها وزورها ... ليست للعلم ولا للحلم باهل) (5) ويتوقع ظهور طبقة رابعة أكثر فجوراً وبأساً

---

1 السيوطي، شرح المقامات، المقامة اللؤلؤية

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 999

3 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001-1002

5 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1002

وعدئية وقد يكون هذا اكبر دواعي ترك الإفتاء والتدريس (أن يأتي بعد هؤلاء حثالة الرجال، وفراخ يأجوج ومأجوج والدجال) (1)

ويشير أيضاً إلى قدرته على تمييز الأصدقاء، فمنهم من يكون ذا بهرجة دون قيمة لا خير فيه، ومنهم من يشك فيه لا يعرف أهو معك أم عليك ومنهم صاحب الذي لا يمكن أن تتخلى عنه ويصف السيوطي الفتيا التي (طبقت الأرض شراً وغرباً وعجماً وغرباً) (2) واصفاً هذه الفتيا بأنها، تفتح كل مقفل، وتوضح كل مُشكل، وتوزيل كل مجهلة أما أسلوبه في الفتيا:

1- الغوص في العلوم والبحث عن القضايا الهامة، والاطلاع على نقول الأئمة الكثير وإظهار ما لم يعرفه الناس وإزالة الإبهام واستخراجها (أغوص البحار على الجواهر، وأفحص عن نقول الأئمة الجماهير، ولتتبع ما خفي على الناس، وأزيل كل إيهام وإلباس واحشد النقول، وأحشر كل قول، واصدع بأحق وأصول، وأفوق الأسنة والنصول..) (3)

واستمر بالحديث عن نفسه وقدرته على مواجهة المشكلات وفساد مدعي العلم وفساد علومهم، وصفاتهم ومن هذه الصفات رافضه كل ما هو جديد من العلوم بحجة عدم سماعه سابقاً، وفساد علوم الشريعة واهتمامهم بالمظاهر وفساد أنفسهم، وعدم القدرة على تحقيق مطالبهم، وعدم الخوض في مسائل العلوم وأشار إلى وجود علماء المظاهر الذين يتقربون للأمرء وانصرف جل اهتمامهم إلى المظاهر (..... احدهم أن طول كمة وكبر العمة وسرح لحيته وحسن هيئته، ثم حفظ دست فجور ليكابرو وتردد إلى الأمرء والأكبار) (4) وتصديهم لتدريس والفتيا وهم براءة من ذلك جزاء وتوبيخ للجهلة الهجر والابتعاد عنهم ومحو أسمائهم من سجلات العلماء، وإبعادهم عن الحصول على ما يريدون إذا سألوا وأرادوا الإجابة وهذا النوع من العقاب الذي استخدم معهم كما استخدم معهم العلماء.

1 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 1002

2 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1003

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص1003-1004

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1014

وفي حال وقوع مشاكل تُحضر هذه المشاكل وتوجه إلى من هو محسن لها،  
ولديه ميولٌ إلى حلها، وعمل على إرجاع الإثم على من سمح لهؤلاء الجهلة بأن  
يخوضوا في مسائل العلم ويجيبون عليها، (فأثم تخلفي عن الجواب وتركي لإبانة  
الصواب على من فتح هذا الباب، وكان ذلك أحد الأسباب) (1)

والختام أشار إلى وعي المجتمع وحموته وقيامه من تحت نير الجهل السائل  
في ذلك الوقت وأخذ كل ذي حق حقه ( قد تدبرت المصالح، واقتديت في الترك  
والعزولة بالسلف الصالح، وانتظرت رحمة الله وهي قريب، وعدلت عن طريقة من  
هو في شك من ذلك مريب، وأضربت عن أسلوب لا أرضاه وأن قل في ذلك  
الضريب، وكررت على سمعي ذكر حبيب من حديث: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ  
غَرِيبٌ) (2) وتحدث عن صحوت المجتمع وقيامه من تحت نير الجهل الشائع في ذلك  
الوقت وأخذ كل ذي حق حقه ودعا إلى صبر العالم (وأنتوا مالا عين رأت ولا أذن  
سمعت ولا خطر على قلب بشر بالإمرار) (3)

---

1 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1014

2 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1064

3 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1084

## الخاتمة:

لا نستطيع أن ننكر الصورة التي قدّمتها لنا المقامات عن المجتمع المملوكي، بأنها واضحة ودقيقة، إلا أنها ركزت على الجانب العلمي أكثر منه على الجوانب الأخرى، وهذا يدل على مدى إهتمام السيوطي بالجانب العلمي في حياته، مشيراً بذلك لدقائق الأمور التي تتعلق بالجانب العلمي.

ومن ابرز النتائج التي استخلصناها من هذه الدراسة، أن عامل الخصومات كان الشرارة الأولى والمحرك الأقوى في سير العملية العلمية في المجتمع المملوكي على الرغم من وجود عوامل تدعم هذه العملية، ونستطيع القول أيضاً: إنه إذا استطاع بعض الأدباء أن يصوروا عصورهم أو مجتمعاتهم في موضوعات أدبهم فإن السيوطي صور مجتمعه بأسلوب من يرسم لوحةً بألوان ذاكرةً فيها كل التفاصيل هذا ما يخص المقامات وما لها من دور عميق في إبراز صورة الحياة العلمية.

حيث اتضح لنا رقي المجتمع المملوكي علمياً وفكرياً مزيلاً كل الشبهات حول انحطاط هذا العصر وتخلفه مثبتاً لنا قدرت هذا المجتمع على تجاوز الصعوبات بالعلم. وهذا يدل على وعي السلطة الحاكمة وأصحاب الطبقات العليا لقيمه العلم، الكامنة في تسجيل مآثر الأمة من أحداث تاريخية وسياسية وأمور اجتماعية حياتية هامة

## المراجع

- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930)(1963): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط2، دار إحياء التراث- القاهرة .
- ابن جماعة، محمد بن ابراهيم(1353): تذكرة السامع والمتكلم، جمعية دار المعارف العثمانية، د.ط .
- ابن خلدون، عبد الرحمن(1998م): تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط2.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ—) (2003م): لسان العرب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن هنيئ، (د.ت) حلية الفرسان، ن م.
- الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد (ت370)(2001): تهذيب اللغة، تحقيق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة- بيروت، ط1.
- باشا، عمر(1989): تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، دار الفكر المعاصر - بيروت ط1.
- بردي، ابن تغري (ت 874)(1963): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة.
- البرمكي، ابن خلكان (681)(1972م): وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس.
- جامعه القدس المفتوحة(1995): منشورات تاريخ الأدب العربي.
- الجزائري، أبو بكر جابر(1396هـ - 1976م): منهاج المسلم، دار الفكر ط8.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ ) (1990): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العرب للملايين\_بيروت، ط4.
- حسن علي إبراهيم(د.ت): تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية— القاهرة.

- الحسين، قصي(1990): الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب – لبنان، 2006م العرب للملايين – بيروت، ط4.
- حمودة، محمود عباس(1980م): المدخل الى دراسة الوثائق العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة.
- الحموي، ياقوت ( ت 626 ) (1979م): معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمارة والسهل والوعر في كل مكان – بيروت.
- الدروبي، سمير(2005): ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي، جمعية عمال المطابع التعاونية – عمان ، ط1.
- الزبيدي، محمد بن عبد الرازق الحسيني ( ت 1205هـ)(د.ت): تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر – بيروت
- زكريا، إبراهيم(1967): ابن حزم الأندلسي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- زيدان، جرجي(د.ت): تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة – بيروت، م2.
- السبكي، عبد الوهاب بن علي(1986): معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1.
- سلام، محمد زغلول(د.ت): الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف – الإسكندرية.
- السيوطي، جلال الدين ( ت 911 ) (1989م): شرح مقامات جلال الدين السيوطي، تحقيق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911)(1967م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ط1.
- الشكعة، مصطفى(1994م): جلال الدين السيوطي، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة.
- الشلبي، أحمد(1985م): مقارنة الأديان (الإسلام)، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط1.

- الشلبي، أحمد(1986م): موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ، ط 7، م15
- الشلبي، احمد(1999): التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة العربية المصرية – القاهرة ، ط 11.
- الشبية، مصطفى عبدالغني(1982م): موفق الإسلام من الرق، منشورات جامعة سبها.
- الصاحب بن عباد، إسماعيل بن العباس أبو القاسم (ت385هـ) (1994م): المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب – بيروت ، ط1، ج6
- الصادق، حسن(2000م): المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، المصرية العالمية- مصر، ط 1.
- ضومط، أنطوان خليل(1982م): الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (1290-1422)، دار الحرائث- بيروت ط2.
- طاش كبرى زادة (1982 م): رسالة آداب البحث وشرحها. بسلسلة نفائس المخطوطات رقم4. دار المعارف- بغداد ، 1955- بيروت ط2.
- عاشور، سعيد(1962): المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، دار النهضة العربية- القاهرة، ط1.
- عاشور، سعيد(1976م): العصر المملوكي في مصر، دار النهضة العربية- القاهرة، ط2.
- العبادي، أحمد(د. ت): قيام دولة المماليك الأولى، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية.
- عباس، أحسان(1998): تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، منشورات لجنه التاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية- جامعة اليرموك – عمان،
- العدوان، أحمد محمد(1985م): العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، دار عالم الكتب الرياض
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 177هـ) (د. ت): كتاب العين

ماجد عبد المنعم(1978م): طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر- مكتبة الأنجلو المصرية.

متر، آدم(د.ت): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد أبو ريذة، فهرسة رفعت البد راوي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط 5، م 1.

المقرى التلسماني، احمد(1996م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرح مريم الطويل ، يوسف الطويل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط 1.

المقريزي، تقي الدين العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ) (د.ت): السلوك لمعرفة دول الملوك.

النووي، زكريا بن يحيى(1987): آدب العالم والمتعلم، مكتبة الصحابة- طنطا، ط1.

الملحق (أ)

مقتطفات توضيحية حول بعض المقامات

## المقامة البحرية

وصف حال العباد والبلاد في حال الشدة والرخاء إذ كرس الناس أوقاتهم في الدعاء والاستغاثة بالله عز وجل والدعاء والابتهال له؛ إذ أصبحوا في الضيق المضني الذي جعلهم لا يستطيعون تحصيل ما يريدون إلا بعد مشقه وذلك لارتفاع الأسعار وخلو البلاد من أنواع الحبوب كالحنطة وانتشار الاحتكار مما دفعهم إلى بذل ما لديهم من أموال في سبيل الحصول على حفنة من القمح لسد الحاجة (وصف لحالة الشدة والعوز ونتائجها)

وهذا الأمر لم يواجهه العامة فقط بل جعل السيوطي لعلماء الأمة دوراً بارزاً في الدعوة لتخطي هذه الأزمة من كل أنواع العلوم والفنون سواء أكانت دينية أم لغوية.... الخ

**المقري:** هل هو قارئ القرآن؟

إذ يتحدث لنا عن تأرجح الحياة العلمية وفقاً للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أو السياسية أي التحول من — إلى وقد يكون السيوطي قد أشار على لسانه إلى الحديث عن رواية الحديث وأنه أصبح ميدان يروي فيه من يشاء من سلسلة الرواة غير القاة

**المحدث:** راوي الحديث.

وأشار السيوطي هنا على لسان المحدث لعلم الحديث لعلم الحديث أو روايته، وخاصة ما يتعلق بسلسلة الرواة رواية الحديث الموضوع **الفقيه:** وفي ظاهر حديثه يتحدث عن أوضاع العامة قبل وبعد فيضان النيل، وقد يشير السيوطي هنا إلى رواية الحديث وطريقتها سابقاً وفي عصره. **الفرضي:** عالم يبحث عن كيفية توزيع الميراث للميت يمكن أن بعد من علماء الرياضيات لما له من دور في تقسيم الميراث .

ظاهر حديثه هنا هو الحديث عن الأوضاع الراهنة في المجتمع المصري، ولكن الحديث المقصود كما أشار إليه السيوطي هو الحديث عن رواية الحديث إذ أصبح كل راوٍ يروي ما يناسبه من روايات للحديث، هذا ما أدى إلى نتائج عديدة في علم الحديث سلبية وهي:

1 – الإتيان بشيء لا يمكن الاهتداء به أو الاستفادة منه (تتكرت المعاياء)  
2\_انتقاص حق الحديث من الرواية في إثبات صحته وقلتهم (وقع العول ونقص  
الطول )

3\_كثرت رواية الحديث الموضوع (وكثر القول)، وعدم الاستفادة منه(وقلّ القول)

4\_إنتشار الكذب في الحديث (عظم الهول فلا حول)

الاصولي: نسبة إلى العالم بعلم أصول الدين، ويشير السيوطي إلى كثرة الأحاديث  
الموضوعة التي جعلت عالم الأصول في حيرة من أمره، بالتشريع في أمور الدين، إذ  
كان الحديث مفتاح فهم آيات القرآن، لكنه أصبح الآن بعيد من الصحة قريباً من  
الشك .

الجدلي: أن القضية الظاهرية هي الاستغلال في حال ضيف الظروف، أما الباطنية  
هي إشارة إلى نقص معنى الحديث، لأنه موضوع، وهذا يشر إلى نقص البرهان في  
حال وجود خطأ في مادته من حيث المعنى.

الصوفي: يمثل دور الناصح للناس والمرشد لهم أو بمعنى أدق المنذر والمرشد له  
دعوته تتجسد في إعادتهم إلى الدين والوعي التام بأموره الصغيرة والكبيرة،  
والتخلف بالأخلاق الإلهية وابتعدتم عن الضرر وزال عنكم، ثم تحدث عن علم النحو  
الذي به تتضح معاني الكلام ومقاصده من خلال ضبط مفردات العبارات.

وفي ظاهر قوله في المقامة (وأصبح النحو يلقطُ الحب كأنه ابن  
عصفور...و ضرب زيداً عمراً<sup>(1)</sup>) في هذا النص يتحدث عن النحو بشكل عام وحشو  
هذا الكلام بالحديث عن قضية المجتمع المصري الفقر والعوز.

لكن باطن الكلام يوحي إلى معضلة حدثت في المجتمع المصري، وهي تفشي  
الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة، وهذا النص (المقامة) يناقشها من حيث الضعف  
نحوياً ولغوياً واسنادياً/سلسلة الرواة .

التصريفي: في ظاهر قوله الحديث عن علم الصرف الذي يتبين من خلال أوزان  
الأفعال، وباطن الحديث عن صعوبة تمييز الأحاديث الصحيحة، والموضوعة لقرب  
التشابه للنص.

**اللغوي:** يمثل دور الحكيم والناصح يقدم الحكم والأمثال ودوره في هذه المقامة إيضاح الحديث وما يمر به من ظروف.

**المعنوي:** يتحدث عن مدى أهمية الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة، وهل لها من فائدة، هل هي قادرة على إظهار شيء جديد من أمور الدين.

**البياني:** يتساءل أيضاً عن الأحاديث الموضوعية، هل يمكن أن تصل الى الناس كافة وهل سيكون لها دور في الشريعة في غير موضعه.

**البديعي:** يقول أن هذا الأمر غاية في الجراءة، يؤدي بخطبٍ جلل، يستوجب وضع قيود وحدود لهذه المسألة الخطيرة .

**العروضي:** يشير إلى مراتب الحديث ودرجاته، وسلسلة رواته.

**الكاتب /المؤرخ:** يشير إلى ضعف التأليف، والتوثيق في علم الحديث، وكثرة الوضع وعدم رجوع الرواة إلى ما صنّف من مؤلفاتٍ فيها .

**الطبيب:** مهمته القضاء على المرض، وذلك باستخدام الدواء المناسب حسب المرض، هذا ظاهرياً، أما باطنياً هو القضاء على الأحاديث الموضوعية من خلال مقارنة الأحاديث الصحيحة، والموضوعية وبيان ما فيهل من زيادةٍ، ونقص هذا ما يجب ان يطبق على الناس من قوانين.

الملحق (ب)  
مقامة الوباء

## مقامة الوباء

وبعد الرجوع إلى كتاب حُسن المحاضرة لجلال الدين السيوطي، واضع المقامات التي دارت حولها الدراسة، تبين لنا أن العام الذي تحدث عنه في المقامة هو العام الوحيد الذي لم يذكره السيوطي في حُسن المحاضرة بوصفه عام انتشر فيه الوباء، وذلك لغاية ماء ولا نعتقد بل نجزم بأن المقصود فيها هو الإشارة إلى وجود الفساد الأخلاقي، وفساد العلم يجعل العلم متماشياً مع الأحوال السائدة، بغض النظر عن سوء المجتمع، مع متطلبات الحياة سواء سلبية أم ايجابية .  
علوم ذلك العصر:

وكما علمنا إن العلم هو عماد كل دولة، لما له من علاقة وثيقة بها وبسياستها، ولذلك فإن تنوع العلوم هام جداً لنهوض مقومات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، هذا ما أدى إلى ظهور علومٍ مختلفة في شتى الميادين، ومن هذه العلوم.

علم الأدب: المتمثل في علم اللغة والتصريف و النحو والمعاني.....  
وما حرف قلبه اسمٌ كريم واسمٌ إذا صُغر اختص بالتكريم وأي كلمه هي اسمٌ وفعلٌ وحرف لم ينبه عليها احدٌ من علماء النحو والصرف<sup>(1)</sup> وهذا كان ظاهراً في المقامة الأسيوطية ومن الكتب المتعلقة بهذه العلوم التي ذكرها السيوطي في مقاماته في ذلك العصر (التعليقه: لابن النحاس الحلبي). وكما نعلم إن الأدب بعاملته والشعر بخاصته لا يتطور تطوراً مفاجئاً، بل يمر بتغيرات بطئيه تظهر ملامحها واضحة بعد زمن قد يطول وليس سهلاً أن نلاحظ تطوراً واضحاً وهذه التغيرات هي مواكبه الشعر لأحداث تاريخيه وسياسيه، ومن الطبيعي أن يستأنف الشعر في العصر المملوكي تفاعله مع الأحداث وخاصةً حركه الجهاد دون اختلاف بين ملامح الشعر من مظامين وقيم وأفكار فنيه وأساليب شعرية<sup>(2)</sup>.

العلوم الشرعية: كالتفسير والإفتاء على علم الحديث " واخرجوا زكاه فطركم، تبتهجوا بنماء فطركم، وهي صاعٌ من قوت البلد على كل حرٍّ وجد، وعليه

1 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 1/ 240

2 انظر: منشورات جامعه القدس المفتوحة: تاريخ الأدب العربي ، 416\_227

فطرة عبده وزوجه وولديه، والصاع: أربعة أمداد، والمدُّ: رطلٌ وثلاث برطلِ بغداد، ولا تجبُ زكاه على من لم يجد يملك فاضلاً عن قوت يومه، ولا يباعُ فيها مسكن وعبداً يحتاج إليه للخدمة ويلزم الكافر فطره المسلم ولا عكس»<sup>(1)</sup>

« كل نوع له في الحديث مجال كالمؤتلف والمختلف والمتفق والمفترق والمقلوب والمتشابه وسائر الأنواع .

ولا بد من وجود شروط يتقيد بها كل من يخوض بعلم من هذه العلوم، مثال ذلك شروط رواية الحديث، كما بينها السيوطي، وهي قد تكون خاصة برواية الحديث في ذلك العصر وغيره من العصور (فيروي الصحيح ويتجنب السقيم)<sup>(2)</sup> ومن علمائه السخاوي والقرطبي «وقلت بين الملا بالإعلان: ليس له أن يروي حديثاً حتى يصححه على مشايخ الحديث، من الآن هذا وأنا اعتقد انه وعظ نفسه قبل أن يعظ الناس وتهذب قبل أن يجلس مع الجلاس ونزع حب الرئاسة بغير الحق من قلبه والرأس»<sup>(3)</sup>

العلوم العلمية: طب فلك رياضيات وهذا ما استنتج من خلال مقامات السيوطي وخير شاهد على علم الطب، وذلك ما ورد في المقامات التفاحية<sup>(4)</sup> والرياحين من خلال ذكر منافع طبية «كلوا الرمان بشحمه فانه دباغٌ للمعدة.... قال الأطباء الحلو منه... ينفع من حميات الغب المتطاولة وألمها ومن الجرب والحكة والخفقان ويقوي الصدر يجلو الفؤاد»<sup>(5)</sup>

وورد بهذا العلم « لها في كتب الطب نصوص وهذا قد أعيا الأطباء واعترف بالعجز عن مداواته الألباب» ولكن وجود المستشفيات والمدارس الطبية وتوافر الأطباء لكي يقض على دور العرافين والمنجمين والضاربين بالرمل وضل كثير من الناس يلجأون إلى هؤلاء، ولم يكن الرجوع إليها قاصراً على الفقراء، بل كان ذلك

---

1 السيوطي: شرح المقامات السيوطي، 1117/2

2 المصدر نفسه 380/1

3 المصدر نفسه 226/1

4 المصدر نفسه 869,868/2

5 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 293/1

أمراً منتشراً بين ذوي اليسار وبين الحكام حتى إن الناصر محمد بن قلاوون أُصيب بإسهال قوي سنة 741هـ فاستشار أطباءه، كما لجأ إلى المنجمين والضاربيين بالرمل، وقد انتشرت بين الحكام الأقداح السحرية وكؤوس السم في القرنين السادس والسابع. أما علم الاقتصاد المتعلق بشؤون الدولة المالية من أموال ومحاصيل وغيرها «هذه براعة استهلال، تؤذن بالإقلال، وتشعر بوضع الأغلال على مخازن الغلال»<sup>(1)</sup>

« وهذا سؤال أرسله إليّ بالأمس عالمان من علماء مذهبك منصبهما في العلم أعلى من منصبك يسألاني عن تحرير الدراهم النقرة ويطلبان أن أولف في ذلك مؤلفاً يُنشر مطوية وطوى نشره»<sup>(2)</sup>

وعلم الرياضيات « بان الروضة منها كمركز الدائرة فهي لها كالقطب والأساس»<sup>(3)</sup>

علم الفلك « انكسف بدره الطالع بما رقم أمواجه طالع في برج السنبله والحوث للمشتري سعيد وهو يوم الزينة وما أدراك»<sup>(4)</sup>

واستطعنا الاستدلال على وجود هذه العلوم في ذلك العصر من خلال ما أورده السيوطي من مصطلحات داله على هذه العلوم وما أورده من كتب كالقانون في الطب لابن سينا ومن ابرز علماء الحساب بدر الدين القيصر .

وأورد إحسان عباس في كتابه تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك موجزاً عن علوم العصر المملوكي عن القلقشندي احد أعلام ذلك العصر، وتحدث عن سبعة أصناف للعلم أو أصول يتفرع عنها أربعة وخمسون علماً متمثلة في:-

أولاً: علم الأدب من نحو وصرف ومعاني ..... وغيرها

ثانياً: العلم الطبيعي (بيطره، فإاسة)

ثالثاً: علم الهندسة

---

1 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 348,347/1

2 السيوطي: شرح المقامات السيوطي 401/1

3 نفس المصدر 272/1

4 نفس المصدر 289/1

رابعاً: علم الهيئة

خامساً: علم العدد

سادساً: العلوم العلمية

سابعاً: العلوم الشرعية<sup>(1)</sup>

ومن خلال ما تقدم تبين لنا أن العلوم خاض بها علماء المماليك علوم متفرقة  
ومتنوعة في شتى الميادين من علوم شرعية وأدبيه وعلميه .

---

1 انظر، عباس تاريخ بلاد الشام، ص 172

الملحق (ج)  
دور الظروف الحياتية في تطور المصطلح العربي

## دور الظروف الحياتية في تطور المصطلح العربي

وددت الحديث عن المجتمع المملوكي بدولتيه من مقوماتٍ سياسيهٍ واقتصادييه واجتماعية ودينيةٍ وجغرافية، لكنني وجدت أن المصادر التي عدتُ إليها قد تناولت هذه الأركان بالدراسة المستفيضة ولذلك فضلتُ التركيز على كلمة (ممالك) بكل ما تحمله من معان لغويةٍ واصطلاحيةٍ وتاريخيةٍ، وقبل البدء بالحديث عن كنه هذا المصطلح تاريخياً، لا بد من الحديث عنه لغوياً واصطلاحياً .

ولتصدي لمعنى الممالك أو مملوك، يجدر بنا الرجوع إلى أمهات المعاجم العربية، التي لوحظ أنها تشترك في بيان دلالة (مملوك) ومن اجل ذلك نورد في هذا السياق بعضاً من مدلولات (مَلَك) وخاصةً ما يتعلق بتسمية هذه الطائفة من الرقيق بهذا الاسم (مَمَالِكُ) .

وذكر كل من الخليل بن احمد الفراهيدي (ت177هـ—793م) (1) والأزهري (ت370هـ—980م) (2) الصاحب بن عباد (385هـ—995م) (3) وإسماعيل بن حماد الجوهري (ت993هـ—1003م) (4) وابن منظور المصري (ت711هـ—1311م) (5):

إن المَلِكُ: ما ملكت اليد من مالٍ وخولٍ، والمملكة: سلطان المَلِكُ في رعيته، ويقال طالب مملكته وعظم مملكه وكبر. والمَمَلُكُ: العبد والجمع ممالك وقد نعت بالملوكة والملكة والمَلِك، ويقال هم عبيد مَمَلَكَة وهو أن يُغلب عليهم فيستبعدون وهم

---

1 الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 177هـ) : كتاب العين ، مادة (الملك).

2 الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد (ت370): تهذيب اللغة، تحقيق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة- بيروت، ط1، 2001، م4، ص3449—3451.

3 الصاحب بن عباد، إسماعيل بن العباس أبو القاسم (ت385هـ) : المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب — بيروت، ط1، 1994م، ج6، ص274، 275 .

4 الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ) : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العرب للملايين — بيروت، ط4، 1990، ج4، ص1609—1612.

5 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ) : لسان العرب ، دار الكتب العلمية — بيروت ، 2003م ، م10 ، ص 594 — 600 / مادة ( ملك ) .

أحرار، وقال أبو عبيد الكسائي: يقال هذا عبد مملكة ومملة جميعاً، وهو الذي سبي ولم يملك أبواه، والعبد القن الذي ملك هو وأبواه .

أما الزبيدي (ت 1205هـ - 1790م) <sup>(1)</sup> قال: إن الملك ضربان: هو التملك والتولي وملك هو القوه على ذلك تولى أو لم يتولى، فمن الأول قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ \* ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ \* ، فجعل النبوة مخصوصةً والملك فيهم عاماً ، فان الملك هنا هو القوه التي يتشريح بها السياسة لأنه جعلهم كلهم متولي للأمر فذلك منافٍ للحكمه كما في كثرة الرؤساء .

وتجاوزاً لما أثبتته المعاجم العربية لمفهوم (ملك) لغةً إلى كتب التراث ولا سيما كتب التاريخ والأدب إذ نجد عنايةً واضحةً في فهم هذا المصطلح وماله من دورٍ في الأسفار عن حقيقة هذه الفئة.

إذ لم يلبث "هذا اللفظ أن اتخذ معناً اصطلاحياً خاصاً بالتاريخ الإسلامي، فأصبح يقصد بالماليك - جموع الرقيق الأبيض الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية- حيث يطلبون أثماناً مرتفعه لبضاعتهم" <sup>(2)</sup> .

وفي البداية نشير إلى المقرئزي (ت 845هـ) حيث علق على هذه التسمية المماليك إذ قال "يدل اسمهم على أنهم أرقاء مملوكين، ينتمون إلى أجناس مختلفة، إذ جئ بهم من أسواق النخاسة بالقوقاز، وآسيا الصغرى، وشواطئ البحر الأسود، وتم

---

1 الزبيدي، محمد بن عبد الرازق الحسيني (ت 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر- بيروت، ج7، ص108.

\* سورة النمل : آية 34 .

\*\* سورة المائدة : آية 20 .

2 عاشور، سعيد: العصر المملوكي في مصر، دار النهضة العربية - القاهرة ، ط2، 1976م، ص21 .

نقلهم إلى مصر عبر بحر القلزم فخليج القسطنطينية، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط فميناء الإسكندرية، أو دمياط<sup>(1)</sup>.

وأشار أبو بكر جابر الجزائري في كتابه منهاج المسلم أن الرق "هو الملك والعبودية، والرقيق هو العبد المملوك مأخوذ من الرقة ضد الغلظة، لأن العبد يرق لسيدته ويلين ولا يغلظ عليه بحكم الملكية التي له عليه"<sup>(2)</sup>.

أما سعيد عاشور وصفهم "المملوك وجمعه ممالك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي ((ملك)) ويقال عبد مملكه بفتح إلام وضعها إذا سبي دون أبويه ويبدو إن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم حيث وردت عبارات "وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ"، "مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ"، أكثر من مرة"<sup>(3)</sup>.

وأضاف أنور زقلمه "كلمة المملوك" هي إسم مفعول من ملك وهو ظاهر المعنى لا يحتاج إلى إيضاح"<sup>(4)</sup>.

أما عبد المنعم ماجد "كلمة المملوك في أصلها اللغوي، مستخرجه من الفعل ملك، لتعني الرقيق الذي يُشترى، بقصد تربيته، والاستعانة به كجند وحكام على عكس لفظة "العبيد" مفرد عبد، ومؤنثها جاريه التي استعملت في العصر الإسلامي الأول، وذلك لان الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع شأن الرقيق، إذ لفظة العبيد تعني العبودية، والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من أبوين حُرّين ويباع، كما أن العبد قد يعني إنسانا اسود بينما المملوك كان غالباً ابيض"<sup>(5)</sup>

أما محمود حمودة أشار إلى مفهوم الممالك بقوله بأنهم "عبارة عن طائفة من الأرقاء المُشترينَ بالمال. ثم كثر عددهم وحكموا قُطراً كمصر. ووضعوا أيديهم على

---

1 لمقريري، تقي الدين العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط وأثار، مطبعة مدبولي - القاهرة، 1999م، ج2، ص 216.

2 الجزائري، أبو بكر جابر: منهاج المسلم، دار الفكر ط8، 1396هـ - 1976م، ص469.

3 عاشور: العصر المماليكي مصر والشام ص1.

4 عاشور، العصر المماليكي مصر والشام ص1.

5 ماجد عبد المنعم: طومان باي آخر سلاطين الممالك في مصر - مكتبة الأنجلو المصرية، 1978م، ص12.

بلاد أخرى خارج هذا القطر، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان المصرية" (1).

أما احمد الشلبي عرفهم ب" ممالك جمع مملوك وهو شخص أُشترِيََ بالمال" (2).  
وخلصة ذلك أن الممالك كما أشارت المصادر السابقة هم مجموعة من الرقيق الأبيض من جنسيات مختلفة، جعلوا لهم كياناً خاصاً بهم في بلاد غربيه استطاعوا إن يرسموا فيها خارطة بلادهم بجهودهم الشرعية أو الغير شرعية .

ولكن الملاحظ على هذه المفاهيم أنها صبت جام تركيزها جذر الكلمه والحديث المختصر عن هوية الممالك دون البحث عن أصل هذه الكلمة وحقيقتها التي تحتاج إلى وقت وجهد من أجل الوصول إلى الحقيقة هذ المصطلح من أين جاء أو متى ظهر لأنه في كلا الحالتين ينم عن تطور ثقافي معرفي في أجنده مفردات اللغة العربية. ولَدْخول لأسوار هذه الحقيقة لبد لنا من دراسة العوامل التي أدت إلى هذا المسمى الجديد كحداثة العصر وامتزاج الشعوب بالنقص . . . الخ، من العوامل الداعمة لهذا الأمر، ولكن قبل كل ذلك علينا القيام بدراسة أسباب الرق التي أدت إلى ظهور ما يُعرف بالرقيق الأبيض أو الرق الصناعي، وذكرت المصادر أن أسباب الرق تعددت وتتنوعت على مر العصور لتنوع الدوافع لإيجادها غير أن هذه الأسباب منها ما هو قصير الأجل ومنها طويل الأجل وهذه الأجلية جاءت بمجيء الإسلام الذي نظم الحياة البشرية بكل مقوماتها وبدايةً سوف نطرق الأسباب المدحوضة التي دحضها الإسلام .

وهذه الأسباب كانت مدعومة من قِبَل ظروف أدت إلى ظهورها، وتمثلت هذه الظروف بظروف طبيعية وأخرى وضعيه من وضع البشر، أدت إلى تبلور هذه الأسباب في الماضي واستمرار بعضها إلى عصور متقدمة ولاسيما العصر المملوكي محور الدراسة.

---

1 حمودة، محمود عباس: المدخل الى دراسة الوثائق العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر—  
القاهرة، 1980م، ص 188.

2 الشلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية —  
القاهرة، ط 7، 1986م، م15، ج5، ص 215.

إذا كان لقسوة المناخ دور كبير في رحيل بعض القبائل وتشتتها في بلدان مختلفة مرافقاً هذا التشتت الفقر والعوز والرغبة في الثراء والجاه الذي أجبر بعض الأهالي على بيع أبنائهم<sup>(1)</sup>، ولكن هنالك أسباب أخرى عديدة كالوباء الأسود (الطاعون) في حوض البحر المتوسط جعل الأهالي يبيعون أبنائهم حمايةً لهم من الموت المحقق.<sup>(2)</sup>

إضافة إلى ذلك ظهر الرق بسبب السرقات، وغيرها من الجرائم التي كان يعاقب عليها بجعل مرتكبيها رقاً أو تقديم بديل عن مرتكبيها ليكون رقاً عنه وهذا ما يُعرف برق الخطيئة المتمثل في استرقاق إنسان لأجل إنسان، لكن عدالة الله التي جسدها الإسلام نادى بأن كل نفس بما كسبت رهينة، قال تعالى: ((وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَزِرُّهُ أُخْرَى))<sup>\*</sup>، وكذلك حرم رق الاستيلاء والقرصنة أي استعباد الحر بأي طريقة كانت وهذا ما أكد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته، رجلاً أعطى بي ثم غدر رجلاً ورجلاً باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجلاً استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره"<sup>\*\*</sup> أما إذا كان سداداً لدين فقد نهى الإسلام عن هذا الأمر وذلك بتأجيل الدين لأجل مسمى، لقوله تعالى: ( وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ حَيْنٍ مَّيْسِرَةً)<sup>\*\*\*</sup> (3).

---

1 الحموي، ياقوت ( ت 626): معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمارة والسهل والوعر في كل مكان – بيروت 1979م، ج 2، ص 519، شبارو، عصام: السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت، 1994، ص 207 .

2 ضومط، أنطوان خليل: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (1290/1422)، دار الحرائث، بيروت ط2، 1982م، ص 25. العدوان، أحمد محمد: العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، دار عالم الكتب، الرياض، 1985م، ص 18.

\* سورة الأنعام: آية 164

\*\* رواه البخاري وابن داوود

\*\*\* سورة البقرة : آية 28

3 أنظر الشيبه، مصطفى عبدالغني: موفق الإسلام من الرق، منشورات جامعة سبها، 1982م،

ص 65-67

أما الطبقيّة أو نظام الطبقيّة في الهند القائم على طبقتين الشوارد (العبيد) والبراهمة الأسياد وكل ما يملك الشوارد فهو فيه حق للبراهمة، وأما الفرس أوجدوا ما يعرف بنظرية الحق الإلهي، المتمثلة بنظرة المملوك لأنفسهم، وعلّية الناس، بأن دمّ من دم الآلهة يجري في عروقهم وما دون ذلك فهم عبيد (1)

أما نظرة الإسلام لهذه الأسباب السابقة الذكر فقد أصدرت حكماً بالغائها والقضاء عليها لأنها تعد مرضاً متفشياً في جسد البشرية.

"فما أضلّ الناس شيءٌ كحب المال الذي فرقت من أجله الأديان وهجرت بسببه الأولاد والإخوان" (2).

أما الأسباب طويلة الأجل الحرب، إذ أباح الإسلام الاسترقاق بسبب الحرب، ولكن ليست كل حرب تصلح لذلك، وإنما الرب الجائزة شرعاً، التي يشترط فيها أن يكون أحد الطرفين من المسلمين (3) والحرب دوراً بارزاً في انتشار الرق إذ كان الرق هم نواة الجيش المملوكي الذين جلبوا من تلك الحروب الطاحنة التي شنّها المغول على جيرانهم ولا سيما القفجاق فقتلوهم وسلبوهم ذرياتهم، فجلّبهم التجار وباعوهم (4)، واستخدموا للخدمة في الميادين التي تهم الدولة، وتقديمهم كهدايا تقدم للسلطان، أو دفعهم كضريبة أو جزية (5)

وبعد هذا الاسترسال الموجز في أسباب الرق لا بد من الإشارة إلى دور الإسلام إتجاه الرق وكيف حاربه إذ وجد له عدة طرق تجسدت في النهب، والمقامرة، السطو، القرصنة، وسداد الدين والحرب، والطبقيّة، لكن الإسلام عمل

---

1 الشلبي، أحمد: مقارنة الأديان (الإسلام)، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ط1، 1985م، ج2، ص 227.

2 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911): حسن المحاضر في أخبار مصر والقاهرة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، ط1، 1967م، ج2، ص 12.

3 أنظر شبيهه: موفق الإسلام من الرق، ص 151.

4 ابن هنيئ، حلية الفرسان، ن م، ص 26. نقلاً عن العدوان: العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ص 18.

5 العدوان: العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ص 18.

على تضيق هذه المداخل بإيجاد مخارج لها كالكفارات وتبادل الأسرى والفداء والمن<sup>(1)</sup>، ولم يبق منها إلا مدخلاً واحداً ضيقه الإسلام حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرق إلا القليل النادر، وهذا السبب هو الحرب المشروعة مع الكفار، قال تعالى: ((فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ .....))\*

ويتمثل المبدأ العام في شأن مصير الأسرى في الإسلام إما بالمن أو الفداء. أما العوامل التي أدت إلى تطور مفهوم ممالك ووصوله إلى هذه الصورة من حيث انتقائه كاسم يطلق على مسمى له خصائص وميزات أنفرد بها، وهذا ما نود الوصول إليه من خلال الإجابة على عدت تساؤلات حول هذا اللفظ .  
أولاً: هل كلمة ممالك أُطلقت على من جيء بهم من أماكن محددة في العالم ؟  
أم أنها اختلفت باختلاف العصر ؟

كما نعلم أن العصر المملوكي شرعت أبوابه من عام 648هـ، عندما أغلقت الدولة الأيوبية أبوابها، إلى أن أُغلق بابها عام 923هـ يقodom الدولة العثمانية، وفي هذه السنوات حدثت تغيرات كثيرة على صفحة البلاد العربية الإسلامية، ومن هذه التغيرات والتي تهمنا في هذه الجزئية من البحث هو جلب الممالك. حيث يُجلب الممالك من خارج البلاد السلامية، من أماكن مختلفة ومحددة في آنٍ معاً، إذ اجتمعت المصادر على ذكر جنسياتهم المتنوعة بتنوع أماكن جلبهم. جلب الممالك من أماكن متفرقة من العالم تمثلت هذه الأماكن بشبة جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق، من بلاد ما وراء النهر، وآسيا الصغرى، وفارس وتركستان وجنوب بحر

1 شلبي: مقارنة الأديان الإسلام، ج 3، ص 235

\* سورة محمد: آية 4.

قزوين إذ شكلوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلاً عن عدد من مُختلف البلاد الأوروبية<sup>(1)</sup>

هذا ما يخص المماليك أو ما يعرف بالرق الأبيض أو "ارستقراطية العبيد"<sup>(2)</sup>، أما العبيد فأن أماكن جلبهم تختلف عن الأماكن السالفة الذكر إذ كانوا يجلبون من الجنوب عبر قوافل كانت تُسير من مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا أكبر أسواق الرقيق الأسود<sup>(3)</sup>

وهذا يشير إلى وجود اختلاف بين المماليك والعبيد إذ جاء هذا الاختلاف من اختلاف أماكن الجلب لهم وألوانهم وعروقهم حتى في ملامحهم الخلقية، وهذه الاختلافات تفضي إلى وجود تمييز عنصري أو ما يعرف بالطبقية في أواسط الرق، إلا أن المماليك هم الطبقة العليا في مجتمع الرق، والعبيد هم العامة.

ويشير القلقشندي إلى أن السلطان والأمراء قاموا بتشكيل طبقه حاكمه مغلقه عن الشعب حددوا لها شروط العرق واللغة والتربية في الطباق والعتق والتدرج بالإمرة وأن يكون المنتمي لهذه الطبقة مولوداً خارج أراضي الدولة المملوكية أي في مناطق التي تزود دولة المماليك بالرقيق الضروري لاستمرار الدولة وخاصةً من السهول الآسيوية والأوروبية الممتدة من آسيا الوسطى حتى البلقان والبحر الادرياتيكي<sup>(4)</sup>.

---

1 المقريزي: المواعظ لإعتبار، ج 2، ص 216 – حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط. ت ص 23، 24. ماجد: طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، ص 27 – 29 . ضومط، الدولة المملوكية، ص 14.

2 متر، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد أبو رييدة، فهرسة رفعت البدراوي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط 5، م 1، ص 298.

3 متر: الحضارة الإسلامية، م 1، ص 297.

4 المقريزي: الخطط ج4، ص 218. عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، دار النهضة العربية – القاهرة ، 1962، ط1، ص14.

وهذا يوضح وجود شروط خاصة بهذه الطبقة وهي شروط قريبة أو مطابقة لطبقة الارستقراطية البعيدة عن شروط الطبقات الدنيا لذلك سموا أنفسهم بمماليك لان نظرتهم لأنفسهم نظرة أرستقراطية .

واختص هذا اللقب الرقيق الأبيض دون الأسود، لأنه ليس كل العبيد ماليك<sup>(1)</sup>، مشيراً إلى عبوديتهم المؤقت التي يعقبها الانطلاق في ميدان الحرية وان هذه العبودية تختلف اختلافاً كلياً عن العبودية الحقيقية بأنها معقوبة بالتححرر بعد فترة زمنية.

فالمماليك علية الرقيق كانت لهم امتيازات الطبقة الحاكمة في مجتمع الأحرار، إذ كان السلطان في حال شرائه لعدد من المماليك، فإنه يرسلهم إلى الأطباء لفحصهم ثم ينزلهم في طبقة جنسهم فيتسلم الطواشي المقدم على الطبقة، حيث خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر إليها لتعليم المماليك القرآن، والخط وأحكام الدين وآداب الشريعة. فإذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية، وحين انتهاء المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينتقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء<sup>(2)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك كانوا منعزلين عن بقية الشعب منكفين على طباعهم وأنفسهم وسبب هذه العزلة هو المحافظة على ارستقراطيتهم من أجل الوصول إلى العرش<sup>(3)</sup>.

هذا بعكس العبيد الذين جلبوا للعمل في الفلاحة، والأعمال الشاقة، والأعمال المنزلية، والبعض منهم التحق بالجيش وأعمال الدولة وإشارة ذلك "تسلم كافور وهو احد العبيد في محل الإخشيد في حكم مصر" ومن هذه الاختلافات اختلفت المسميات لشيء الواحد الذي يحمل نفس الصفات مع اختلاف بسيط في هذه الخصائص، وهذا

1 أنظر حسن: المماليك البحرية ، ص 27.

2 القلقشندي، ج 4 ، ص 472

3 الحسين، قصي: الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب —

لبنان، 2006م، ص 13

التعداد اللفظي ظهر بسبب امتزاج الشعوب وتبادل الثقافات مما ساهم في إيجاد مصطلح جديد في أجنده اللغة العربية لتدل على تمايز هذه الفئة من الرقيق عن بقية الفئات التي جاءت من خارج العالم الإسلامي لتمييز نفسها بحريتها المفتعلة القائمة على إثبات الذات .

فلو أمعنا النظر جيداً في لفظ عبد أو عبيد ومملوك أو ممالك من حيث التركيب اللفظ .

فكلمة عبد / عبيد – لو جزأت على هذا النحو:

عبء يد

وبذلك تصبح لدينا عبارة مكتملة المعنى تعني إي أنهم يبقون عبيد لا يحركوا ساكناً مقيدون بقيود العبودية التي أوجدت لهم من أجل الخضوع تحت نير العصبية الطبقية .

أما كلمة ممالك – مما – إليك

مما = من : تفيد التجزئة

ما : بمعنى اسم الموصول الذي

تصبح لدينا عبارة كاملة المعنى (من الذي إليك) وتعني أنك تملكهم ولا تملكهم .

ومن خلال التفصيل المختصر لكلمتي عبيد وممالك لاحظنا الفرق أيضا

وهذا ما أوجده امتزاج الشعوب واتحاد الثقافات.

وإذا كان هذا اللقب جاء نتيجة تطور العصر وتقدمه فإنه يدل على أننا عملنا على استبدال لفظ عبد أو عبيد بلفظ ممالك وهذا يتطلب منا أن نتخلى عن مصطلح من مصطلحات لغتنا العربية لكي نحيل مكانه آخر ليطلق على الطائفة المجلوبة أو على أي شيءٍ محدث في العصر حتى يتماشى مع حياة البذخ والترف، أي نَقْرُضُ فيه أشياء ونحيل مكانها أخرى والجوهر ثابت وهذا يعود إلى وجود وجه جديد لعملة ثقافة العيب التي نعالجها بإسلوب الانتقاء .

لكن ثقافة العيب التي سنتحدث عنها هنا مغايرة لثقافة العيب السابقة، فكاننا نعلم أن " ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الأقاليم عن أحوال الممالك في مصر وما يذاع عن ثورة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على

بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر<sup>(1)</sup>، " فما دفع الآباء أيضاً إلى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التي تعجب أصحاب هذه القصور، كالموسيقى والغناء والرقص والشعر وغيرها<sup>(2)</sup>، وبعدها يعرضون أبنائهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيات إما عرض مباشر أو عن طريق النحاس".

ومن خلال ذلك قد تكون التسمية بممالك تكونت لدى الأهالي الذين باعوا أبنائهم لأسباب السابقة مما أشعل الشرارة الأولى في إيجاد هذا المسمى على هذه الطائفة لكي يثبتوا لمن رفض بيع أولادهم بأن أولادهم أصحاب أملاك ليسوا عبيداً مهضومي الحقوق كما هو معروف لدى الناس بأن العبد ليس له حقوق هذا من جانب ومن جانب آخر لكي يقضوا على ثقافة العيب التي تؤرق الآباء أنهم أسياد في بلاد غيرهم وحتى يثبتوا للعالم الإسلامي أن ليس كل العبيد رقيق بل لهم ما يميزهم كما سماهم آدم متز "استقرارية العبيد"<sup>(3)</sup> واحمد الشلبي بأنهم رق صناعي".

والمأمل في هذا المسمى يلحظ إنحاء المؤشر من الجانب السلبي للإيجابي وذلك بتحول مدلوله من العبودية إلى الحرية، وذلك لتغير العصر وتقدمه وامتزاج الشعوب.

ولكن الظروف التي مر بها الممالك كان لها الدور الأكبر في هذا التحول ولاسيما الظروف السياسية التي مرت بها البلاد من هجوم الصليبيين والمغول وتعد معركة عين جالوت هي أول نقطة وضعت على السطر في هذا التحول مما أعطاهم الشرعية في الحكم. فكانت دولتهم وليدة الانتصارات التاريخية الحاسمة إلى جانب هذه الظروف تأتي قضية العتق، إذ يحصل المملوك على حريته بعد بلوغ الشباب وإنهاء تدريبه، لكنه يبقى على ارتباط بسيد يخدمه ويخلص له إلا أن هذه الحرية حرية جسدية شكلية بعبودية معنوية، حيث نجد الأرقاء العتقين قد بلغوا أكبر مكان من الرفعة، وأطاعهم الأحرار، ولكن لم ينجح المعتقدون في أن يتفوقوا على الأحرار في الشرق مدة طويلة إلا نادراً، ومن الملاحظ أيضاً أن صفة العتق ملازمة للممالك

1 حسن: الممالك البحرية، ص 25.

2 الشلبي: مقارنة الأديان (الإسلام)، ح 3، ص 244.

3 أنظر متز: الحضارة الإسلامية، ص 311. حسن: الممالك البحرية ص 23

أكثر من العبيد وذلك لوجود ما يعرف بالدراسة الخاصة لهم وتربيتهم ومن بعدها يعتقد بعكس العبد لأنهم لم يسمحوا بأن يملكهم إلا أبناء جنسهم.

وفي الختام نجد أن الظروف التي ساندت ظهور هذا المسمى كثيرة، كلها تضافرت حول هذا المصطلح من أجل إبرازه على صورته النهائية فإن اختلاف أماكن الجلب سواءً للمماليك أو العبيد وامتزاج الشعوب وتبادل الثقافات كان له الدور الأبرز في إظهار هذا المسمى ما يدل على قدومه من الخارج مع من جيء بهم للبلاد الإسلامية.

حيث استخدمت ممالك إلى جانب لفظ عبيد وذلك لوجود مميزات تميز كل طائفة عن الأخرى كما أشرنا سابقاً، وأن الرقيق صار مختلطاً متنوعاً تنوع البلاد التي فتحها المسلمون (1) وهذا ما أكده أحمد العبادي بأن التسمية اقتضت في معظم الدول الإسلامية المتأخرة على فئة الرقيق الأبيض (2).

---

1 العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك الأولى، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د. ت، ص 14 .

2 العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص 11